دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	فقه الواقع في ضوء القرآن الكريم : أصول وتطبيقات
المؤلف الرئيسي:	بركة، حسن المبروك
مؤلفين آخرين:	عباس، عباس عوض اللهِ(معد)
التاريخ الميلادي:	2009
موقع:	أم درمان
الصفحات:	1 - 545
رقم MD:	563100
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	جامعة أم درمان الاسلامية
الكلية:	كلية أصول الدين
الدولة:	السودان
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	فقه الواقع، آيات الأحكام، السور والآيات
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/563100

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الفصل الأول

منطلقات شرعية لفقه الواقع

وفيه ثلاثة مباحث :
المبحث الأول : الواقع في السياق القرآني .
المبحث الثاني : فقه الواقع فريضة شرعية ، وضرورة بشرية.
المبحث الثالث : مظاهر فقه الواقع .

المبحث الأول
الواقع في السياق القرآني

المتأمل في القرآن الكريم ، يجد أن لفظ الواقع ، أو مادة وقع وما يتفرع منها ذات مدلولات ومعان ، تختلف حسب السياق الموضوعي للآية الذي يعبر عن الخطاب الإلهي بلسان الوحي .

والسياق الموضوعي معناه دراسة الآية أو الآيات التي يجمعها موضوع واحد – سواء أكان الموضوع عاماً كالقصص القرآني أو الأمثال أو الأحكام الفقهية ، أم كان خاصاً كالقصة المخصوصة بنبي من الأنبياء ، وحكم من الأحكام أو غير ذلك – وتتبع مواقعها في القرآن الكريم كله [١] .

أي إن الكلمة الواحدة في قد ترد في القرآن لعدة معان مختلفة ، وإنما يتحدد المعنى المراد منها في كل موقع بالسياق ، ونعني بالسياق : ما قبل الكلمة وما بعدها ، أي : سياق الجملة في موقعها من الآية [٢] .

ويمكن حصر هذه المعاني ، من خلال سياق النص القرآني في الآتي :

١ . وقوع الأجر ، بمعنى استحقاقه .

قال ﷻ : ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [٣] ، يقول الإمام ابن كثير [٤] في تفسير هذه الآية : أي ومن يخرج من منزله بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من المسانيد ، عن عمر بن الخطاب – ﷺ – قال : قال رسول الله – ﷺ – : " إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه " [٥] .

ونقل النسفي [٦] عن أهل العلم : أن كل هجرة لطلب علم ، أو حج أو جهاد ، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة ، أو قناعة أو زهدا أو ابتغاء رزق طيب ، فهي هجرة إلى الله ورسوله ، وإن أدركه الموت في طريقه فقد وقع أجره على الله [٧] .

---

١ . منهج السياق في فهم النص ، د / عبدالرحمن بودرع ، ص٣٠ .

٢ . انظر كيف نتعامل مع القرآن ، القرضاوي ، ص ٢٤٠ .

٣ . سورة النساء ، آية ١٠٠ .

٤ . هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، حافظ ومؤرخ وفقيه ، توفي في دمشق سنة ٧٧٤ هـ ، من مصنفاته : البداية والنهاية ، تفسير القرآن العظيم ، اختصار علوم الحديث ، اختصار السنة النبوية . انظر طبقات الشافعية ، ابن قاضي شهبة ٢ / ٢٣٧ ، طبقات المفسرين ، الداودي ١ / ١١٠ ، شذرات الذهب ٦ / ٢٣١ ، الأعلام ١ / ٣٢٠ ، التفسير والمفسرون ١ / ٢٤٢ .

٥ . تفسيرابن كثير ٢ / ٣٥٧ ، والحديث أخرجه البخاري ، فتح البارئ مع صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ، رقم ١ ، ١ /١١ .

٦ . هوعبدالله بن أحمد النسفي ، أبو البركات ، فقيه حنفي ومفسر ، نسبته إلى نسف ببلاد السند ، توفي سنة ٧١٠ هـ ، له مصنفات جليلة منها : مدارك التنزيل في تفسير القرآن ، المنار في أصول الفقه ، عمدة العقائد . انظر الجواهر المضية ، محي الدين الحنفي ٢ /٢٩٤ ، الأعلام ٤ /٦٧ ، التفسير والمفسرون ١ / ٣٠٤ . ٧ . مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، النسفي ، ١ / ٣٨٩ .

٢ . وقوع الحق بمعنى ظهوره .

قال جل شانه:﴿وَأَوْحَيْنَاإِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَايَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١] قال الإمام الرازي – رحمه الله – : (فوقع الحق) قال مجاهد[٢] والحسن [٣] : ظهر . وقال الفراء [٤] : فتبين الحق من السحر . قال أهل المعاني : ظهور الشيء نازلاً إلى مستقره ، وسبب هذا الظهور أن السحرة : قالوا لو كان ما صنع موسى سحراً لبقيت حبالنا وعصينا ولم تفقد ، فلما فقدت ثبت أن ذلك إنما حصل بخلق الله سبحانه وتعالى وتقديره لا لأجل السحر ، فهذا هو الذي لأجله تميز المعجز عن السحر . قال القاضي : قوله (فوقع الحق) يفيد قوة الثبوت والظهور بحيث لا يصح فيه البطلان ، كما لا يصح في الواقع أن يصير لا واقعاً [٥] .

وفي ظلال هذه الآية الكريمة يقول الأستاذ سيد قطب [٦] – رحمه الله – : إنه الباطل ينتفش ، ويسحر العيون ويسترهب القلوب ، ويخيل إلى الكثير أنه غالب ، وأنه جارف وأنه محيق ! وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفثئ كالفقاعة ، وينكمش كالقنفذ ، وينطفئ كشعلة الهشيم ! وإذا الحق راجح الوزن ، ثابت القواعد ، عميق الجذور ... والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال ، وهو يصور الحق واقعاً ذا ثقل : (فوقع الحق) .. ثبت واستقر .. وذهب ما عداه فلم يعد له وجود : (وبطل ما كانوا يعلمون) .. وغُلب الباطل والمبطلون وذلوا وصغروا وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يبهر العيون : (فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) .. [٧] .

٣ . وقوع السماء على الأرض .

يقول سبحانه: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ [٨] . قال ابن كثير : أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض ، فهلك من فيها ، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، ولهذا قال :(إن الله بالناس لرءوف رحيم) أي : مع ظلمهم كما قال في الآية الأخرى : ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [٩] .

---

١ . سورة الأعراف ، الآيتان ، ١١٧ ، ١١٨ . ٢ . هو مجاهد بن جبر ، تابعي مفسر من أهل مكة ، أخذ التفسير عن ابن عباس ، وقرأه عليه ثلاث مرات ، تنقل في الأسفار ، وتوفي بالكوفة سنة ١٠٤ هـ . انظر صفة الصفوة ١ / ١٤٠ ، الوافي بالوفيات ، صلاح الدين بن أيبك ٢٥ / ٦٦ ، الأعلام ٥ / ٢٧٨ .

٣ . هو الحسن بن يسار البصري ، حبر الأمة في زمانه ، ولد بالمدينة ، وكان أحد الفقهاء الفصحاء ، والشجعان النساك ، وتوفي بالبصرة سنة ١١٠هـ . انظر صفة الصفوة ٢ / ١٥٥ ، وفيات الأعيان ٥٦/٢ ، الوافي بالوفيات ١٢ / ١٩٠ ، الأعلام ٢ / ٢٢٦ .

٤ . هو يحي بن منظور الديلمي ، إمام الكوفيين ، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ، كان فقيها متكلما ، وعالما بأيام العرب وأخبارها ، يميل إلى الاعتزال ، وكان مولوده بالكوفة ، وتوفي في طريق مكة سنة ٢٠٧ هـ ، من كتبه : معاني القرآن ، ما تلحن فيه العامة ، الأيام والليالي ، مشكل اللغة . انظر الفهرست لابن النديم ص ٩١ ، تاريخ بغداد ١٤ / ١٥٤ ، معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ٦ / ٢٨١٢ ، وفيات الأعيان ٥ / ١٤٥ ، الأعلام ٨ / ١٤٥ . ٥ . مفاتيح الغيب ، الرازي ، ٧ / ١٦٧ .

٦ . هو الشهيد سيد قطب إبراهيم ، مفكر إسلامي مصري ، ومن قيادات الإخوان المسلمين ، ولد بأسيوط سنة ١٩٠٦ م ، وأعدم في عهد جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٦ م ، من كتبه : النقد الأدبي ، التصوير الفني في القرآن ، مشاهد يوم القيامة ، في ظلال القرآن ، المستقبل لهذا الدين ، معالم في الطريق . انظر الأعلام ٣ / ١٤٧ ، معجم المؤلفين المعاصرين ، محمد خير رمضان يوسف ، ١ / ٢٦١ .

٧ . في ظلال القرآن ، سيد قطب، ٣ / ١٣٥٠ . ٨ . سورة الحج ، آية ٦٥ . ٩ . تفسير ابن كثير ،٤/ ٤٥٦ ، والآية رقم ٦ من سورة الرعد.

ويكون وقوعها على الأرض بمعنى الخرور والسقوط فيكون المعنى:أن الله بتدبير علمه وقدرته جعل السماء نظاماً يمنعها من الخرور على الأرض ، فيكون قوله (ويمسك السماء) امتناناً على الناس بالسلامة مما يفسد حياتهم ، ويكون قوله (

إلا بإذنه) احتراسا ،جمعا بين الامتنان والتخويف ، ليكون الناس شاكرين مستزيدين من النعم خائفين من غضب ربهم أن يأذن لبعض السماء بالوقوع على الأرض [١] .

٤ . وقوع العذاب .

في الآيات الآتية يتحدد مفهوم الواقع ضمن سياق وقوع العذاب ، وتحقق الوعيد ، وهو التفسير الغالب ؛ لأنه يستوعب جل الآيات التي تتناول مادة (وقع) .

قال تعالى : ﴿ **وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً** ﴾ [٢] .

قال الإمام القرطبي [٣] – رحمه الله – : (فظنوا أنهم مواقعوها) ، فظنوا هنا بمعنى اليقين والعلم ، قال ابن عباس : أيقنوا أنهم مواقعوها ، وقيل : رأوها من مكان بعيد فتوهموا أنهم مواقعوها ، وظنوا أنهم تأخذهم في الحال . و المواقعة ملابسة الشيء بشدة . (ولم يجدوا عنها مصرفاً) أي : مهربا لإحاطتها بهم من كل جانب [٤] .

وتتمة للمعنى قال الشنقيطي [٥] – رحمه الله – : والظن في هذه الآية بمعنى اليقين ؛ لأنهم أبصروا الحقائق وشاهدوا الواقع ، وقد بين تعالى في غير هذا الموضع أنهم موقنون بالواقع ، كقوله تعالى : ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾ [٦] .

وقال جل شأنه : ﴿ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ** ﴾ [٧] .

وعذاب الله المقسم على وقوعه هو عذاب الآخرة لقوله (يوم تمور السماء موراً) إلى قوله تكذبون ... والوقوع أصله النزول من علو واستعمل مجازاً للتحقق وشاع ذلك ، فالمعنى إن عذاب ربك لمتحقق ، واتبع قوله (لواقع) بقوله (ماله من دافع) أي : ما للعذاب دافع يدفعه عنهم [٨] .

---

١ . التحرير والتنوير ، الطاهر ابن عاشور ٨ / ٣٢٣ .

٢ . سورة الكهف ، آية ٥٣ .

٣ . هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، من كبار المفسرين ، من كتبه : الجامع لأحكام القرآن ، قمع الحرص بالزهد والقناعة ، التذكار في أفضل الأذكار . توفي في أسيوط سنة ٦٧١ هـ . انظر الديباج المذهب ، لابن فرحون ٢ / ٢٤٣ ، طبقات المفسرين ٢ / ٦٥ ، شذرات الذهب ٥ / ٣٣٥ ، شجرة النور الزكية ، مخلوف ١ / ٢٨٢ ، الأعلام ، ٥ / ٣٢٢ ، التفسير والمفسرون ، ٢ / ٤٥٧ .

٤ . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٦ / ٧ .

٥ . هو محمد الأمين بن مختار الشنقيطي ، مفسر ومدرس للعلوم الشرعية ، من علماء شنقيط ، سكن المدينة وتوفي بها سنة ١٩٧٣ م ، من مؤلفاته : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام ، نثر الورود على مراقي السعود في أصول الفقه ، القول السديد في كشف حقيقة التقليد ، الإقليد في الأسماء والصفات والاجتهاد والتقليد . انظر معجم المؤلفين المعاصرين ، ٢ / ٥٤٤ .

٦ . أضواء البيان ،الشنقيطي ٤/ ١٠٠، والآية رقم ١٢ من سورة السجدة .

٧. سورة الطور ، آية ٧.

٨ . التحرير والتنوير ، ابن عاشور،١٣ / ٤٠ .

وروى الإمام أحمد بن حنبل [١] – رحمه الله – عن جبير بن مطعم[٢] رضي الله عنه قال : (قدمت المدينة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأكلمه في أساري بدر فدفعت إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة المغرب فسمعته يقرأ (والطور) إلى (

إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) فكأنما صدع قلبي) [٣] ، وفي رواية فأسلمت خوفا من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب .

فهو واقع حتماً لا يملك دفعه أحد أبداً . وإيقاع الآيتين والفاصلتين حاسم قاطع . يلقى في الحس أنه أمر داهم قاصم ، ليس منه واق ولا عاصم . وحين يصل هذا الإيقاع إلى الحس البشري بلا عائق فإنه يهزه ويضعضعه ويفعل به الأفاعيل [٤] .

وقد روى ابن أبي الدنيا [٥] رحمه الله : أن عمراً خرج يعس المدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين ، فوافقه قائما يصلي ، فوقف يستمع قراءته فقرأ : (والطور .. حتى بلغ : إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) .. قال : قسم ورب الكعبة حق . فنزل من حماره . واستند إلى حائط فمكث مليا ، ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضى الله عنه [٦] .

٥ . وقوع العداوة .

قال عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** ﴾ [٧] .

يقول صاحب الظلال في سياق هذه الآية : بهذا ينكشف لضمير المسلم هدف الشيطان ، وغاية كيده ، وثمره رجسه .. إنها إيقاع العداوة والبغضاء في الصف المسلم – في الخمر والميسر – كما أنها صد الذين آمنوا عن ذكر الله وعن الصلاة .. ويا لها إذن من مكيدة ! وهذه الأهداف التي يريدها الشيطان أمور واقعة يستطيع المسلمون أن يروها في عالم الواقع بعد تصديقها من خلال القول الإلهي الصادق بذاته [٨] .

---

١ . هو أحمد بن حنبل الشيباني ، أحد الأئمة الأربعة ، ولد ببغداد ونشأ منكبا على طلب العلم ، وسافر في سبيله أسفاراً كثيرة ، ابتلى في زمن المأمون بفتنة خلق القرآن ، وتوفي سنة ٢٤١ هـ ، من مصنفاته : المسند ، الناسخ والمنسوخ ، فضائل الصحابة ، الرد على الزنادقة فيما ادعت به من متشابه القرآن . انظر تاريخ بغداد ٥ / ١٧٨ ، صفة الصفوة ١ / ٢٢١ ، وفيات الأعيان ١ / ٨٧ ، الوافي بالوفيات ٦ / ٢٢٥ ، طبقات الحنابلة ، القاضي محمد بن أبي يعلى ، ١ / ١٠ ، شذرات الذهب ، ٢ / ٩٦ ، الأعلام ، ١ / ٢٠٣ .

٢ . هو أبو عدي جبير بن مطعم بن عدي ، صحابي جليل من علماء قريش وسادتهم ، وعده الجاحظ من كبار النسابين ، توفي بالمدينة سنة ٥٩ هـ . وله ٦٠ حديثا في كتب الحديث . انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٣ / ٢٢٤ ، الوافي بالوفيات ١١ / ٤٤ ، الأعلام ٢ / ١١٢ .

٣ . أخرجه أحمد في مسنده ، رقم ١٦٧٠٧ ، ١٣ / ١٤٧ .

٤ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٦ / ٣٣٩٣ .

٥ . هو عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا ، حافظ للحديث ، ومكثر من التصنيف ، ولد ببغداد وتوفي بها سنة ٢٨١ هـ ، وكان من الوعاظ العارفين بأساليب الكلام وما يلائم طبائع الناس ، ومن مصنفاته : الفرج بعد الشدة ، مكارم الأخلاق ، ذم الدنيا ، اليقين ، العقل وفضله . انظر الفهرست ، ص ٢٣٠ ، تاريخ بغداد ١٠ / ٨٩ ، الأعلام ، ٤ / ١١٨ .

٦ . مناقب عمر بن الخطاب ، ابن الجوزي ، ص ٨٩ .

٧ . سورة المائدة ، آية ٩١ .

٨ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٢ / ٩٧٦ .

ولما بين تعالى اشتمال شرب الخمر واللعب بالميسر على هذه المفاسد العظيمة في الدين ، قال تعالى : **(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)**، وروي أنه لما نزل قوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى**﴾ (١) .

قال عمر بن الخطاب- ﷺ - : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فلما نزلت هذه الآية . قال عمر: انتهينا يا رب (٢) .

٦ . **وقوع الغضب** .

قال ﷻ :﴿ **قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ** ﴾ (٣) .

فالآية الكريمة في سياق خطاب سيدنا هود ﷺ لقومه ، وإنذاره لهم بوقوع غضب من الله جزاء تكذيبهم وعنادهم ، بعد أن جاءتهم الآيات البينات ، والمعجزات الباهرات .

وعقبوا كلامهم بالشرط فقالوا : (إن كنت من الصادقين) استقصاء لمقدرته قصدا منهم لإظهار عجزه عن الإتيان بالعذاب فلا يسعه إلا الاعتراف بأنه كاذب ... فأجابهم بأن أخبرهم بأن الله قد غضب عليهم ، وأنهم وقع عليهم رجس من الله ، والأظهر أن : (وقع) معناه حق وثبت ، من قولهم للأمر المحقق : هذا واقع ، وقولهم للأمر المكذوب هذا غير واقع ، فالمعنى حق وقدر عليكم رجس وغضب ... (٤) .

٧ . **وقوع القول** .

يقول ابن كثير في سياق تفسير الآيات المتعلقة بوقوع العذاب من سورة النمل : قال تعالى :﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ (٥) ، أي : فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله تعالى :﴿ **فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى** ﴾ (٦) ، فحينئذ قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به ، كما قال تعالى :﴿ **هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ** ﴾ (٧) ، وهكذا قال ها هنا:﴿**وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ**﴾ (٨) ، أي : بهتوا فلم يكن لهم جواب ؛ لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية (٩) .

---

١ . سورة النساء ، آية ٤٣ .

٢ . مفاتيح الغيب ، الرازي، ٦/ ٦٨ ، والحديث أخرجه أحمد في مسنده ، رقم ٣٧٨ ، ١ / ٣٢٢ ، وقال الشيخ أحمد شاكر:إسناده صحيح .

٣ . سورة الأعراف ، آية ٧١ .

٤ . التحرير والتنوير ، الطاهر ابن عاشور ، ١٣ / ٤٠ .

٥ . سورة النمل ، آية ٨٤ .

٦ . سورة القيامة ، الآيتان ٣١ ، ٣٢ .

٧ . سورة المرسلات ، الآيتان ٣٥ ، ٣٦ .

٨ . سورة النمل ، آية ٨٥ .

٩ . تفسير ابن كثير ، ٤ / ٦٨٦ .

٨ . **وقوع القيامة** .

قال المولى عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ** ﴾ (١) .

(إنما توعدون لصادق) أي :لخبر صدق ،(وإن الدين) وهو الحساب ،(لواقع) أي: لكائن لا محالة (٢) .

قال الشيخ ابن عاشور في تفسير هذه الآية : إن الدين لواقع ، الدين : الجزاء ، والمراد إثبات البعث الذي أنكروه ، ومعنى (الواقع) واقع في المستقبل بقرينة جعله مرتبا في الذكر الجزاء زيادة على الكناية به عن إثبات البعث تعريض بالوعيد على إنكار البعث (٣) .

وقال ﷻ : ﴿ **وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذْراً إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ** ﴾ (٤) .

وهذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام ، أي : ما وعدتم به من قيام الساعة ، والنفخ في الصور ، وبعث الأجساد ، وجمع الأوليين والآخرين في صعيد واحد ، ومجازاة كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، إن هذا كله (لواقع) أي : كائن لا محالة (٥) .

ونجد في ظلال هذه الآية : (أن الله سبحانه مقسم في مطلع هذه السورة على أن هذا الوعد بالآخرة واقع ، وصيغة القسم توحي ابتداء بأن ما يقسم الله به هو من مجاهيل الغيب ، وقواه المكنونة المؤثرة في الكون ، وفي حياة البشر . وقد اختلف السلف في حقيقة مدلولها فقال بعضهم هي الرياح ، وقال بعضهم هي الملائكة إطلاقاً ، وقال بعضهم إن بعضها يعني الرياح وبعضها يعني الملائكة .. مما يدل على غموض هذه الألفاظ ومدلولاتها ، وهذا الغموض هو أنسب شيء للقسم بها على الأمر الغيبي المكنون في علم الله . وأنه واقع كما أن هذه المدلولات المغيبة واقعة ومؤثرة في حياة البشر) (٦) .

٩ . **وقوع الواقعة** .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ** ﴾ (٧) .

والواقعة أصلها : الحادثة التي وقعت ، أي حصلت ، ويقال : وقع أمر ، أي حصل كما يقال : صدق الخبر مطابقته للواقع ، أي كون المعنى المفهوم منه موافقا لمسمى ذلك المعنى في الوجود الحاصل أو المتوقع على حسب ذلك المعنى ، ومن ذلك حادثة الحرب يقال : واقعة ذي قار ، وواقعة القادسية ، والمراد بالواقعة هنا القيامة فجعل هذا الوصف علما لها بالغلبة في اصطلاح القرآن ، قال تعالى: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ** ﴾ (٨) ، كما سميت الصاخة والطامة والآزفة ،أي الساعة الواقعة (٩) .

---

١ . سورة الذاريات ، الآيتان ٥ ، ٦ .
٢ . تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٦ / ٦٨٧ .
٣ . التحرير والتنوير ، ابن عاشور ، ١٢ / ٣٤٠ .
٤ . سورة المرسلات ، الآيات ١ – ٧ .
٥ . تفسير ابن كثير ، ٦ / ٣٦٩ .
٦ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٦ / ٣٧٩١ .
٧ . سورة الواقعة ، الآيتان ١ ، ٢ .
٨ . سورة الحاقة ، آية رقم ١٥ .
٩ . التحرير والتنوير ، ابن عاشور ، ١٣ / ٢٨١ .

ويقول القرطبي– رحمه الله – : وسميت واقعة ؛ لأنها تقع عن قرب ، وقيل : لكثرة ما يقع فيها من الشدائد ، وفيه إضمار ، أي اذكروا إذا وقعت الواقعة [١] .

وقوله ليس لوقعتها كاذبة أي : ليس لقيام القيامة كذب ولا تخلف بل هو أمر واقع يقيناً لا محالة ، وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله تعالى كقوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً** ﴾ [٢] .

المبحث الثاني
فقه الواقع فريضة شرعية ، وضرورة بشرية

إذا كان الحل الإسلامي فريضة يوجبها الشرع ، وضرورة يحتّمها الواقع ، وكذلك الدعوة الإسلامية في أهدافها وأطوارها ، فمن هذا المنطلق كان هذا العنوان ؛ إذ لا يتصور هذا الحل إلا بالتكامل بين الفقهين : فقه النص ، وفقه الواقع ، ولا تتحقق الدعوة إلا بالنزول إلى ميدان الحدث ، والتعاطي مع الواقع فهماً وتفاعلاً وتصحيحاً .

لذا قلنا إن فقه الواقع فريضة شرعية ، وضرورة بشرية ، ويتلخص ذلك في بعدين :

أولاً : الواجب الشرعي ، وهو يقتضي أن نؤصّل لهذا الفقه ، وندلل عليه من الكتاب والسنة ، وأقوال الأئمة واجتهاداتهم في العصور التالية لصدر الإسلام .

الدليل على الوجوب من الكتاب .

سنورد هنا نموذجين من القرآن على سبيل المثال لا الحصر . لأنه لا يمكن أن نخص آية دون أخرى لنقول هذه تدل على الإلمام بالواقع في القرآن الكريم ، أو هذه يبدو فيها اعتبار الواقع جلياً ، إذ أن القرآن بحكمه وأحكامه أنزله الله لبني آدم ، وهو الذي خلقهم وخلق واقعهم ، وما أنزل فيه من تشريع أو حكم أو تعليم إلا ويناسب الإنسان [٣] .

١ . إرسال كل رسول إلى قومه خاصة ، قبل بعثة الرسول – ﷺ – .

قال ﷻ : ﴿ **إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ﴾ [٤] .

قال القاسمي [٥] رحمه الله : أي لكل نبي داع إلى الحق مرشد بالآية التي تناسب زمنه كقوله تعالى:﴿ **وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴾ [٦] ، تعريض بأنه– ﷺ – ليس بدعاً من الرسل . فقد خلا قبله الهداة الداعون إلى الله [٧] .

---

١ . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٩ / ١٦٢ .

٢ . أضواء البيان ، الشنقيطي ، ٧ / ٤٩٩ ، والآية رقم ٨٧ من سورة النساء .

٣ . انظر فقه الواقع ، أصول وضوابط ، لأحمد بوعود ، ص ٨٦ .

٤ . سورة الرعد ، آية ٧ .

٥ . هو جمال الدين بن محمد القاسمي : عالم ومفسر جليل ، إمام الشام في عصره ، ولد بدمشق وتوفي بها سنة ١٩١٤م ، عد له تلميذه عاصم البيطار ١١٠ مصنفاً ، منها : الفتوى في الإسلام ، المسند الأحمد على مسند الإمام أحمد ، محاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم ، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث ، تعطير المشام في مآثر دمشق الشام ، موعظة المؤمنين في اختصار إحياء علوم الدين . انظر الأعلام ، ٢ / ١٣٥ ، معجم المؤلفين المعاصرين ، ٢ / ٥٦٠ .

٦ . سورة فاطر ، آية ٢٤ .

٧ . محاسن التأويل ، القاسمي ، ٦ / ٢٦١ .

وقال رسول – ﷺ – : (ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) [١] .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [٢] .

(وهذه نعمة شاملة في كل رسالة . فلكي يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، لم يكن بد أن يرسل بلغتهم ، ليبين لهم وليفهموا عنه ، فتتم الغاية من الرسالة .

وقد أرسل النبي ﷺ بلسان قومه . وإن كان رسولاً إلى الناس كافة ؛ لأن قومه هم الذين سيحملون رسالته إلى كافة البشر ... وقد كان .. فلا تعارض بين رسالته للناس ، ورسالته بلسان قومه ، في تقدير الله ، وفي واقع الحياة) [٣] .

وهناك فهماً أعمق للآية ، وهي أن لكل قوم لساناً يخاطبون به ، فلسان الخواص غير لسان العوام ، ولسان الحضر غير لسان البدو ، ولسان الغربيين غير لسان الشرقيين ، ولسان الذي وصل القمر غير لسان الذين يعيشون في الأدغال ، ولابد أن توصل الدعوة إلى كل قوم حسب مستواهم ، وبالطريقة التي تلائمهم ، وباللغة التي يعقلونها ، ولا تخاطب قوماً بلسان قوم آخرين [٤] .

وهذا ما قاله الإمام علي[٥] – رضي الله عنه – : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله [٦] .

وقال ابن مسعود [٧]– رضي الله عنه – : ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة [٨] .

فإذا كان تبليغ الرسالة ، ونشر الدعوة للقوم واجب شرعي ، ولا يتم إلا بمعرفة الظروف والمستجدات والحوادث لتوظيفها لصالح هذا الغرض ، أي بمعرفة فقه الواقع ، ومن المقرر عند علماؤنا : مالم يتم الواجب إلا به فهو الواجب ، يقودنا هذا إلى أن فقه الواقع واجب شرعي لا مناص من القيام به .

٢ . **التأمل في سنن الله في الكون ، ونواميسه في الوجود .**

نجد كثيراً من الآيات تدعونا إلى التأمل في الواقع ، وفي الكون ، وتحليل الأوضاع والاعتبار في سنن الذين سبقونا ، وهذه بعضاً منها [٩] :

قال تعالى :﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [١٠] .

---

١ . متفق عليه ، واللفظ لمسلم ، وأخرجه البخاري عن أبي هريرة ، فتح البارئ ، رقم ٤٩٨١ ، ٩ / ٨ ، وانظر تفسير ابن كثير ١٨٦/١ .

٢ . سورة إبراهيم ، آية ٤ . ٣ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٤ / ٢٠٨٧ . ٤ . انظر كيف نتعامل مع القرآن ، القرضاوي ، ص ٤٣٨ .

٥ . هو أبو الحسن علي بن أبي طالب ، أمير المؤمنين ، ورابع الخلفاء الراشدين ، وابن عم الرسول وصهره ، وأحد الشجعان الأبطال ، ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء ، وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد ، وولى الخلافة بعد مقتل عثمان سنة ٣٥ هـ ، وكانت في عهده واقعة الجمل وصفين المشهورتين ، وأقام بالكوفة دار خلافته إلى أن قتله عبدالرحمن بن ملجم غيلة سنة ٤٠ هـ ، وله ٥٨٦ حديثا عن الرسول .انظر الطبقات الكبرى ، ٦ / ٩١ ، صفة الصفوة ١ / ١٦٢ ، أسد الغابة ٤ / ٨٧ ، الوافي بالوفيات ٢١ / ١٠٣ ، الأعلام ٢٩٥/٤ .

٦ . أخرجه البخاري موقوفا ، فتح البارئ ، كتاب العلم ، ١ / ٢٨٨٤ .

٧ . هو أبو عبد الرحمن عبدالله بن مسعود الهذلي ، صحابي جليل ، ومن السابقين للإسلام ، وأول من جهر بالقرآن بمكة ، نظر إليه عمر يوما وقال : وعاء ملئ علماً ، وله في كتب الحديث ٨٤٨ حديثا ، وتوفي بالمدينة سنة ٣٢ هـ . انظر الطبقات الكبرى ، ٦ / ٩٣ ، صفة الصفوة ، ١ / ٢٠٨ ، أسد الغابة ٣ / ٣٨١ ، الوافي بالوفيات ١٧ / ٣٢٤ ، الأعلام ٤ / ١٣٧ . ٨ . انظر فتح البارئ ، ابن حجر العسقلاني ، كتاب العلم ،١ / ٢٨٨٤ .

٩ . انظر التأصيل الشرعي لفقه الواقع ، محمد إبراهيم الهسنياني ، ص ٥٠ ١٠ . سورة غافر ، آية ٨٢ .

وقال جل شأنه : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١) .

وقال عز وجل :﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٢) .

وقال ﷻ : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٤) .

أليس يدل هذا على وجوب فقه الواقع وضرورته ؛ لتحكيم شرع الله في الأرض ، ولخير البلاد والعباد في المعاش والمعاد .

(والأمور لا تمضي في الناس جزافاً ، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً ، فهناك نواميس ثابتة تتحقق لا تتبدل ، والقرآن يقرر هذه الحقيقة ويعلمها الناس كي لا ينظروا الأحداث فرادى ، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصلية محصورين في فترة قصيرة من الزمن وحيز محدود من المكان ، ويرفع تصورهم لارتباطات الحياة وسنن الوجود فيوجههم دائماً إلى ثبات السنن واطراد النواميس) (٥) .

الدليل على وجوب فقه الواقع من السنة النبوية .

استخدام أسلوب الإحصاء لمعرفة القوة الضاربة :

قال ﷻ :﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴾ (٦) ، وقال تعالى:﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ (٧) .

(وورد أن رسول الله ﷺ قال : (أحصوا لي كم يلفظ الإسلام) (٨) ، فأحصوا له فكانوا ألفاً وخمسمائة رجل ، وهنا استخدم الرسول الأكرم لغة الأرقام وأسلوب الإحصاء لأول مرة فيما يعلم الناس . وقد جاء في بعض الروايات : (اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس) (٩) ، فدل على أنه إحصاء كتابي يقصد تدوينه وتسجيله ، وهذه محاولة متقدمة في تاريخ التطور الإنساني) (١٠) .

(أراد الرسول – ﷺ – معرفة واقع القوة الضاربة التي يمتلكها بعد دراسة واقع العدو ومدى قوتهم لتكون دراسة واقعه ، وواقع خصومه على سواء .

نفهم من استخدام الرسول ﷺ الإحصاء ما يلي :

١ . أن أسلوب الإحصاء من رسول الله –ﷺ – يعطينا مدى القوة التي يمتلكها الرسول ﷺ من الرجال الذين آمنوا بهذه الدعوة الجديدة .

---

١ . سورة الحج ، آية ٤٦ . ٢ . سورة الروم ، آية ٩ . ٣ . سورة العنكبوت ، آية ٢٠ .

٤ . سورة آل عمران ، آية ١٣٧ . ٥ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٥ / ٢٩٤٩ .

٦ . سورة الكهف ، آية ١٢ . ٧ . سورة الطلاق ، آية ١ .

٨ . أخرجه أحمد في مسنده عن حذيفة ، رقم ٢٣١٥٢ ، ١٦ / ٥٧١ ، وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح ، وتمام الحديث : قلنا يا رسول الله أتخاف علينا ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة ؟ قال : فقال " إنكم لا تدرون لعلكم تبتلوا " قال : فابتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سراً .

٩ . أخرجه البخاري ، فتح البارئ ، رقم ٣٠٦٠ ، ٦ / ٢١٦ . ١٠ . السنة مصدراً للمعرفة والحضارة ، القرضاوي ، ص ٢٢٩ .

٢ . إعداد العدة للنفير في حالة مواجهة أي لون من ألوان القتل والنفي والطرد ، قد يستعملها الأعداء .

٣ . ولهذا أمر الرسول ﷺ بعد هذا الإحصاء رجالات الدعوة أن يهاجروا إلى الحبشة ، فاختاروا ثلة منهم حفاظا عليهم ، وحفاظا على الإسلام .

٤ . هذا الإحصاء دراسة مقارنة بين قوة الإسلام وقوة العدو ، وهذا ما أشارت إليه الإستراتيجية العسكرية الحديثة ، وقد سبقهم الرسول ﷺ في ذلك .

٥ . أن أكثر ما يتخذ من القرارات العسكرية يكون بعد الإحصاء ، ولهذا فإن الرسول- ﷺ – لم يتخذ القرارات النهائية إلا بعد الإحصاء الدقيق لعدد المسلمين) [١] .

وفي هذا كما ترى ، تقديراً للإمكانات ، ودراسة للواقع المعاش ، وتخطيطاً لتثبيت قواعد الدين الجديد ، وصولاً إلى تمكين دولة الإسلام الخالدة .

الدليل على الوجوب من السيرة النبوية .

العمل السري في دار الأرقم بن أبي الأرقم [٢] .

كان رسول الله ﷺ يجتمع مع المسلمين سراً ، نظرا لصالحهم وصالح الإسلام ، وكانت دار الأرقام بن أبي الأرقم المخزومي على الصفا ، وكانت بمعزل عن أعين الطغاة ومجالسهم ، فكان أن اتخذها مركزاً لدعوته، ولاجتماعه من السنة الخامسة من النبوة [٣] .

ميزات في اختيار دار الأرقام مقراً [٤] .

١ . تقع هذه الدار على الصفا ، وكانت بمعزل عن أعين الطغاة ومجالسهم ، فالأهمية الأمنية تكمن في كونها بعيدة عن مراقبة ورصد قريش للقادمين إليها ، والخارجين منها .

٢ . موقعها أسفل الجبل يزيد من صعوبة كشفها ومراقبتها .

٣ . إن الدار ليس فيها موضع يمكن أن يستغله أعداء الدعوة فيطلعوا من خلاله على ما يدور بداخلها فقد روعيت فيها تصميم الباب الذي ترك فيه شقوق . فتحات . يمكن من خلالها مشاهدة من بالخارج ومعرفة هويته ، ومن ثم يتم التصرف وفقا لذلك ، ويظهر ذلك في قصة إسلام سيدنا عمر رضي الله عنه (حين طرق الباب ، فقبل أن يفتح له ، نظر أحد الصحابة من خلال الباب ، فتأكد من هوية الطارق بأنه عمر جاء متقلداً سيفه ، فأخبر بذلك النبي- ﷺ –) [٥] .

---

١ . التأصيل الشرعي لفقه الواقع ، محمد الهسنياني ، ص ٩٠ .

٢ . هو الأرقم بن عبد مناف بن أسد المخزومي : صحابي رفيع الشأن لم يسبقه إلى الإسلام غير ستة من الصحابه ، كانت داره عند الصفا تسمى دار الإسلام ، وفيها كان يجتمع الرسول بأصحابه ، وفيها أسلم عمر . شهد الأرقم المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، واستعمله على الصدقات . توفي بالمدينة سنة ٥٥ هـ . انظر الطبقات الكبرى ٣ / ١٨٣ ،صفة الصفوة ١ / ٢٣٠ ، أسد الغابة ١ / ١٢٧ ، ١٨٨ ، ٦٦٢ ،الوافي بالوفيات ٨ / ٢٣٤ ، شذرات الذهب ١ / ٦١ ، الأعلام ١ / ٢٨٨ .

٣ . الرحيق المختوم ، المباركفوري ، ص ١١٥ ، نقلا عن مختصر السيرة النبوية ، محمد بن عبد الوهاب ، ص٦٦ .

٤ . انظر في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية ، د / إبراهيم علي محمد أحمد ، ص ٣٨ وما بعدها .

٥ . انظر السيرة النبوية لابن هشام ، ص ٣٤٦ .

٤ . التنظيم الدقيق لعملية الدخول والخروج من العوامل الهامة التي ساعدت على الاحتفاظ بسرية المقر ، ويظهر ذلك من خلال موقف أم جميل مع سيدنا أبي بكر- ﷺ - .

فعندما أخذت أم جميل وأم الخير سيدنا أبا بكر ﷺ إلى دار الأرقم ، قال ابن كثير : (فأمهلتا – أي أم جميل وأم الخير- حتى إذا هدأت الرِّجْل وسكن الناس ، خرجتا به ، يتكئ عليهما ، حتى أدخلناه على رسول ﷺ) [١] .

وهذا الموقف يوضح لنا الحس الأمني ، والوعي الواقعي لدى أم جميل .

الأسباب في اختيار الأرقم بن أبي الأرقم لهذه المهمة دون غيره [٢] .

١ . إن الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه ، فما كان يخطر ببال قريش أن يتم لقاء محمد وأصحابه بداره .

٢ . إن الأرقم- ﷺ – من بني مخزوم ، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم ، ولو كان الأرقم معروفاً بإسلامه فلا يخطر في البال أن يكون اللقاء في داره ؛ لأن هذا يعني أنه يتم في قلب صفوف العدو .

٣ . إن الأرقم ﷺ كان فتىً عند إسلامه ، فلقد كان في حدود السادسة عشرة من عمره ، ويوم تفكر قريش في البحث عن مركز التجمع الإسلامي ، فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصغار من أصحاب محمد ﷺ بل يتجه نظرها وبحثها إلى بيوت كبار الصحابة ، أو بيته هو نفسه عليه الصلاة والسلام .

(إن الدعوة الإسلامية في مكة كانت في هذه المرحلة سرية ، سرية في التنظيم ، وسرية في الدعوة والحركة ، فتنظيم الجماعة المسلمة قيادة وقاعدة كان سرياً ، لم يطلع على أسراره وأفراده وقيادته أي جهة معادية سواء أكانت تنظيما معاديا أو أفرادا معادين ، لم يكن أحد من هؤلاء يعرف المسلمين الذين يدخلون هذا الدين ولا أماكن تجمعاتهم ، ولا محاضن تربيتهم ، ولا مربيهم ، ولا أي حركة من حركاتهم .

وكانت فكرة الدعوة ورسالة الدعاة مجهولة تماما عند الناس ، وعند التنظيمات الأخرى ، وعند أصحاب الجاه والسلطان .

وعلى هذا كانت الجماعة الإسلامية والدعوة الإسلامية تعيش في أمن وأمان ، لا تصطدم مع غيرها ، ولم تتعرض لمضايقة أحد من زعماء وأصحاب النفوذ ؛ لأنهم لم يشعروا بها ولم يعرفوا أهدافها ومراميها) [٣] .

رسالة الرسول- ﷺ – إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية .

كتب النبي ﷺ إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية : (بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتيك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم القبط ، ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [٤] .

---

١ . البداية والنهاية ، ابن كثير ، ٢ / ٣٣ .

٢ . المنهج الحركي للسيرة النبوية ، د / منير الغضبان ، ص ٣٨ .

٣ . السيرة النبوية ، دراسة تحليلية ، د/ محمد عبد القادر أبو فراس ، ص ٥٤ .

٤ . سورة آل عمران ، آية ٦٤ .

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بلتعة [١] ، فلما دخل حاطب على المقوقس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك .

فقال المقوقس : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه .

فقال حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فَقْدَ ما سواه ، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، فكل نبي أدرك قوماً فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدرك هذا النبي ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به .

فقال المقوقس : إني قد نظرت في أمر هذا النبي ، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء [٢] ، والإخبار بالنجوى ، وسأنظر) [٣]) .

(ثم أكرم حاطب بن أبي بلتعه وأنزله قصره وأحسن نزله وبالغ في إكرامه ، وبعد أيام قلائل بعث إليه ، وقد جمع بطارقته وقال : إني سائلك عن كلام فأحب أن تفهم عني .. فقال حاطب : هلم ..

فقال المقوقس : أخبرني عن صاحبك أليس هو نبي .. ؟

فقال حاطب : بلى هو رسول الله ..

فقال المقوقس : فماله حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها .. ؟ ؟

فقال حاطب : عيسى ابن مريم ، ألست تشهد أنه رسول الله ؟!

فقال المقوقس : بلى .

قال حاطب : فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا .

فقال المقوقس : أنت حكيم قد جاء من عند حكيم ...) [٤] .

(وأخذ كتاب النبي ﷺ ، فجعله في حُقٍّ [٥] من عاج ، وختم عليه ، ودفعه إلى جارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية ، فكتب إلى رسول الله ﷺ : " بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد : فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين ، لهما مكان في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت إليك بلغة لتركبها ، والسلام عليك " ، ولم يزد على ذلك ولم يسلم) [٦] .

---

١ . صحابي ، وأحد فرسان قريش وشعرائها في الجاهلية ، شهد الوقائع كلها مع رسول الله ﷺ ، وكانت له تجارة واسعة . بعثه النبي ﷺ إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ، ومات في المدينة سنة ٣٠ هـ ، وفيه نزلت أوائل الآيات من سورة الممتحنة في واقعة الحديبية المشهورة .انظر الطبقات الكبرى ٣ /٨٤ ،أسد الغابة١/٦٦٠،٢٢٠الوافيات بالوفيات١١/٢٠٩ ، شذرات الذهب ١ / ٣٧ ،الأعلام ٢ / ١٥٩ .

٢ . يقال : أخرج خبء السماء خبء الأرض ، أي المطر والنبات . انظر أساس البلاغة ، الزمخشري ، ص ١٥١ .

٣ . زاد المعاد في هدى خير العباد ، ابن القيم ، ٣ / ٦٠٣ .

٤ . انظر دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، البيهقي ، ٤ / ٣٩٦ .

٥ . هو المنحوت من الخشب والعاج ، انظر لسان العرب ، ١٠ / ٥٦ . ٦ . زاد المعاد ، ابن القيم ، ٣ / ٦٠٣ .

(هذه هي الرسائل .. وهذه هي لغة الخطاب .. وهذا هو الحوار .

فماذا نفهم منها ، وما هو فقه الواقع في هذه الرسائل والحوادث ؟ .

١ . عندما أرسل الرسول إلى النجاشي ، فإن الرسول يعلم أن النجاشي ملك يملك أمر نفسه أما المقوقس فهو حاكم من قبل آخر فلا يملك الرأي بانتهائه ، لذلك دعاه وقومه إلى الإسلام بدون تفاصيل ، رغم أن المقوقس يدين بالنصرانية ، والنجاشي كذلك ، ولكن فرق بين هذا وذاك في نصرانيتهم .

فملخص الهدف من الخطاب : إننا ندعو إلى ما تدعون أنتم إليه ، ولكننا أتينا لنكمل ونتم ما قد تبدل بفعل البشر وطول الأيام .

٢ . اختيار الرسول المرسل ، فمن شروط رسول السفارة الدراسة والفهم للمكان والتاريخ والدولة ، حتى يعرف كيف يكون الخطاب ، وكيف يكون الحوار إذا فرض عليه ، وهذا ما يأخذ به سفراء هذا الزمان من دراسة لعادات الدولة الموفدون إليها وتاريخها وتقاليدها ، فهذه سابقة تعد لنا .

٣ . الفهم الواعي للرسالة التي يحملها وأبعادها ، وكيف يتحدث عنها ويناقش فيها .. فإن الورق لا يعبر بنفسه إذا لم يكن هناك حامل يفقه ما يحمل ويدرك رسالته ووفادته جيداً . فهل هناك فرق بين هذه الإجراءات ، وبين بروتوكولات هذه الأيام ؟

٤ . أدب التخاطب بما لا ينفر ولا يزعج ، وهو ما يسمونه في هذه الأيام بفن التعامل مع الآخرين أو الإيتيكيت ، وهذا سبق آخر من سوابق الإسلام العلمية .

٥ . الفطنة والذكاء ، وسرعة البديهية ، وهي من الشروط التي يجب أن تتوفر في السفراء أو المرسلين في وفادة أو تمثيل دولة في مجتمع معين .

٦ . يجب أن يعلم كل إنسان أن العالم ليس بمعزل عن بعضه بل هو حلقة متصلة ، وكما تدرس الناس فإن الناس يدرسونك ويسلطون عليك الأضواء ، وهذا ما يجب على كل متحدث لبق أن لا يضع في موازينه أنه أذكى من محدثه أو أفطن منه وأمهر ، وهذا فهم آخر للواقع .

٧ . مراعاة الرسول ﷺ لفقه المرحلة ، وعامل الزمن ، والتخطيط لبدايات اللقاء الأول للدعوة والبيان إلى الملوك وشعوبهم ، فالمقوقس وإن لم يعترف بالنبوة إلا أن الخبر واللقاء تسرب إلى الشعب وأخذ الناس يتساءلون عن هذا الدين ، وعن ماهيته ، فعرفوا فيه العدل والرحمة والحب ، فما كان منهم عندما أتى عمرو لفتح مصر إلا نصروه وسلموا إليه زمام أمورهم .

إنها دروس ندرسها لنأخذ منها ما يمكن أن يتفق مع واقعنا أو يمكن أن نعيش عليه لنخرج بفقه للواقع *)* [١] .

---

١ . انظر فقه الواقع في رسائل المصطفى ﷺ ، محمد سلطان ، ص ٦٧ ، وذلك لمعرفة تحليل أكثر لهذه الرسالة واستنباط فقه الواقع منها .

الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ ، وفقه الواقع .

منع الزواج من أهل الكتاب ، مراعاة للواقع :

قال أبو جعفر بن جرير[١] رحمه الله بعد حكايته الإجماع إباحة تزويج الكتابيات : وإنما كره عمر ﷺ ذلك ، لئلا يزهد الناس في المسلمات أو لغير ذلك من المعاني ...وعن شقيق [٢] قال : تزوج حذيفة [٣] يهودية ، فكتب إليه عمر : خل سبيلها ، فكتب إليه أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها ؟ فقال : لا أزعم أنها حرام ، ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن [٤] .

(وهذا ما ذهب إليه بعض العلماء المعاصرين ، وهو رأي عمر بن الخطاب ﷺ– كما أسلفنا – ، إذ هو أول من منع الزواج بالكتابيات مستنداً في ذلك إلى حجتين أساسيتين :
الأولى : لأنه يؤدي إلى كساد الفتيات المسلمات وتعنيسهن .
الثانية : لأن الكتابية تفسد أخلاق أولاد المسلمين ودينهم .) [٥] .

فهذا يدل على عمق فهم عمر ، وفقهه الواقعي ، الذي يتطلب تشخيص الداء ، ووصف الدواء من ينبوع الكتاب ومعين السنة .

وهناك مفاسد أخرى استجدت مع توسع الواقع ، وتعقد العصر ، نذكر منها على سبيل المثال [٦] :

١ . قد تكون للزوجة من أهل الكتاب مهمة التجسس على المسلمين .
٢ . دخول عادات الكفار إلى بلاد المسلمين .
٣ . عدم التزام الكتابيات اليوم بدين أهل الكتاب .
٤ . تعرض المسلم للتجنس بجنسية الكفار .
٥ . جهل المسلمين المتزوجين بالكتابيات مما يجعلهم عجينة سهلة التشكيل في أيديهن .

---

١ . هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، المؤرخ المفسر الإمام ،ولد في آمل طبرستان سنة ٢٢٤هـ ، وعرض عليه القضاء فامتنع، وهو من ثقات المؤرخين ، قال عنه ابن الأثير : أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ ، استوطن بغداد وتوفي بها سنة ٣١٠ هـ .من كتبه : أخبار الرسل وملوك ، جامع البيان في تفسير القرآن ، اختلاف الفقهاء . انظر تاريخ بغداد ٢ /١٥٩ ، وفيات الأعيان ٤ /٤٣ ، طبقات المفسرين ٢ /١٠٦ ، شذرات الذهب ٢/٢٦٠ ، الوافي بالوفيات ٢ /٢١٢ ، الأعلام ٦ /٦٩ .

٢ . هو شقيق بن ثور ابن عفير الدوسي البصري : من التابعين ، ومن أشراف العرب في العصر الأموي ، كان رئيس بني بكر بن وائل في خلافة عثمان ، وشهد الجمل وصفين ، وهو من الثقات عند رجال الحديث ، توفي سنة ٦٤ هـ . انظر الأعلام ٣ / ١٧١ .

٣ . هو حذيفة بن حسل العبسي الأزدي ، واليمان لقب حسل : صحابي ، ومن الولاة الشجعان الفاتحين ، كان صاحب سر النبي ﷺ في المنافقين ، ولاه عمر على المدائن بفارس ، وتوفي بها سنة ٣٦ هـ ، وله في كتب الحديث ٢٢٥ حديثا . انظر الطبقات الكبرى٦ / ٥٩ ، ٩٤ . ٧ / ٢٣٠ ، صفة الصفوة ١ / ٣١٠ ، أسد الغابة ١ / ٥٠١ ، ٧٠٧ ، الوافي بالوفيات ١١ / ٢٥١ ، شذرات الذهب ١ / ٤٤ .

٤ . تفسير ابن كثير ، ١ / ٥١٧ ، وقال ابن كثير : إسناده صحيح .

٥ . انظر فقه الأولويات ، دراسة في الضوابط ، محمد الوكيلي ص ٧٧ .

٦ . المصدر السابق ، ص ٧٧ ، نقلاً عن نظرية الضرورة الشرعية ، محمد جميل مبارك ، ص ٣٩٧ وما بعدها .

عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه [١] ، **وفهم الواقع .**

كتب عياض بن عبد الله قاضي مصر إلى عمر بن عبد العزيز يسأله في مسألة : فكتب إليه عمر : إنه لم يبلغني في هذا شيء ، وقد جعلته لك فاقض فيه برأيك ، ومعنى هذا أن المسألة إذا كانت محل اجتهاد فأولى الناس بالاجتهاد فيها هو العارف ببيئتها والخبير بظروفها [٢] .

الإمام أبو حنيفة رحمه الله ، **وفقه الواقع .**

وصيته – رحمه الله – ***لأحد تلاميذه .***

وهي وصيتة لتلميذه يوسف بن خالد السمتي [٣] ، وهو ذاهب إلى البصرة في منصب يتولاه ، حيث يقول له : (إذا دخلت البصرة استقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقك ، فأنزل كل رجل منزلته وأكرم أهل الشرف وعظم أهل العلم ووقر الشيوخ ، ولاطف الأحداث وتقرب من العامة ، ولا تقصرن في مروءتك ولا تخرجن سرك إلى أحد ولا تثق بصحبة أحد حتى تمتحنه ، ولا تخادن خسيساً ولا وضيعاً ، ولا تألفن ما ينكر عليك في ظاهره) [٤] إلى آخر النصيحة .

إن نصيحة الإمام أبي حنيفة لتلميذه تدل على عمقه لفقه الواقع ، ودراسة أحوال الناس ، ودراسة النفوس البشرية ، ولذلك قال له : إذا استقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقك فأنزل كل رجل منزلته . وكيف يكون إنزال الناس منازلهم بدون دراسة أحوالهم ونفسياتهم وأهوائهم ؟ هكذا كان الإمام يعيش مع الواقع ، وهكذا يجب أن نكون [٥] .

ثانياً : الضرورة البشرية .

ويمكن رسم ملامحها ، وتحديد معالمها في بعض الأمور ، منها :

١ . **ضرورة التعايش والتعاون .**

علاقة المسلمين مع بعضهم تبنى على التعاون والتغافر، وعلاقتهم بغيرهم تقوم على التفاهم والتعايش ، والعالم اليوم يتقارب فيه الزمان والمكان والإنسان حتى أضحى قرية صغيرة ، أو ما يعرف بالعولمة ، ونحن إذ ننادي بالعالمية والعلمية ، وبالتبادل الحضاري ، وتناقل الخبرات والمعارف بين الشعوب ، في المقابل نرفض الانصهار في بوتقة واحدة تنفي الخصوصية الثقافية والميراث القيمي والأخلاقي لدى الأمم .

ففي التغافر مع المسلمين يقول الله تعالى :﴿ **وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ** ﴾[٦] .

---

١ . هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي ، الخليفة الصالح ، والملك العادل ، قيل عنه هو خامس الخلفاء الراشدين تشبيها له بهم ، ولد ونشأ بالمدينة ، وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩ هـ ، وسكن الناس في أيامه . توفي ومدة خلافته لم تزد عن سنتين ونصف ، وذلك سنة ١٠١هـ . انظر صفة الصفوة ١ / ٨٠ ، الوافي بالوفيات ٢٢ / ٣١٢ ، الأعلام ٥ / ٥٠ .

٢ . أصول التشريع الإسلامي ، علي حسب الله ، ص ١٠٦ .

٣ . هو يوسف بن خالد بن عمير السمتي ، فقيه يرمى بالزندقة ، من أئمة الجهمية ، وهو أول من وضع كتاباً في الشروط ، وهي كتابة الوثائق والسجلات ، وأول من حمل رأي أبو حنيفة إلى البصرة ، وله كتاب في التجهم ، وكان صاحب رأي وجدل ، وهو عند كثير من أهل الحديث كذاب زنديق ، توفي سنة ١٩٠ هـ . انظر الأعلام ، الزركلي ٨ / ٢٢٨ .

٤ . الإمام الأعظم أبو حنيفة ، د / حمزة النشرتي وآخرون ، ص ٣٢٢ .

٥ . انظر التأصيل الشرعي لفقه الواقع ، الهسنياني ، ص ١٧٧ .

٦ . سورة الشورى ، آية ٣٧ .

وكبائر الإثم والفواحش قد تدعو إليها القوة الشاهية ، ولما كان كثير من كبائر الإثم والفواحش متسبباً على القوة الغضبية مثل القتل والجراح والشتم والضرب أعقب الثناء على الذين يجتنبونها ، فذكر أن من شيمتهم المغفرة عند الغضب ، أي إمساك أنفسهم عن الاندفاع مع داعية الغضب فلا يغول الغضب أحلامهم [١] .

وفي التعاون بين المسلمين، يقول جل شأنه:﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٢].
يأمر تعالى في هذه الآية عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر ، وترك المنكرات وهو التقوى ، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم ، قال ابن جرير : الإثم : ترك ما أمر الله بفعله ، والعدوان : مجاوزة ما حد الله في دينكم ، ومجاوزة ما فرض الله عليكم في أنفسكم وفي غيركم [٣] .
وقد حكى الإمام أحمد بن حنبل عن أنس بن مالك [٤] ، قال : قال رسول الله ﷺ : (انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قيل : يارسول الله !هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره إذا كان ظالما ؟ قال :تحجزه وتمنعه فإن ذلك نصره) [٥] .

وفي دستور[٦] العلاقة مع غير المسلمين يقول الله تعالى : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [٧] .

فالبر والقسط مطلوبان من المسلم للناس جميعا ، ولو كانوا كفاراً بدينه ، ما لم يقفوا في وجهه ، ويحاربوا دعاته ، ويضطهدوا أهله [٨] .

وفي الحث على التعارف والتواصل يقول المولى ﷻ :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [9] .

يا أيها الناس . والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم .. من ذكر وأنثى .. وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل . إنها ليست التناحر والخصام . إنما هي التعارف والوئام ، فأما اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف ، والوفاء بجميع الحاجات ، وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب

---

١ . التحرير والتنوير ، ابن عاشور ، ١٢ / ١١٠ .
٢ . سورة المائدة ، آية ٢ .
٣ . تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٢ / ٤٥٣ .
٤ . هو أبو ثمامة أنس بن مالك بن النضر الخزرجي الأنصاري ، مولده بالمدينة وأسلم صغيرا وخدم الرسولﷺ إلى أن قبض ، روى عنه رجال الحديث ٢٢٨٦ حديثا ، ورحل إلى دمشق ومنها إلى البصرة ، فمات فيها سنة ٩٣هـ ، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة . انظر الطبقات الكبرى ٣ / ٣٨١ ، صفة الصفوة ١ / ٣٦١ ، أسد الغابة ٣٠٠/١ وما بعدها، الوافي بالوفيات ٩ / ٢٣٤ ، الأعلام ١ / ٢٤ .
٥ . أخرجه أحمد في مسنده ، رقم ١١٨٨ ، ١٠ / ٣١٢ ، وقال محققو المسند : إسناده صحيح .
٦ . هو القاعدة يعمل بمقتضاها ، والدفتر تكتب فيه أسماء الجند ومرتباتهم ، وفي الاصطلاح المعاصر : مجموعة القواعد الأساسية التي تبين شكل الدولة ، ونظام الحكم فيها ، ومدى سلطتها إزاء الأفراد . المعجم الوسيط ، ١ / ٢٨٣ .
٧ . سورة الممتحنة ، الآيتان ٨ ، ٩ .
٨ . غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، القرضاوي ، ص ٦ .
٩ . سورة الحجرات ، آية ١٣ .

في ميزان الله . إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .. والكريم حقا هو الكريم عند الله . وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين : إن الله عليم خبير [١] .

وقد وضعت هذه الآية الكريمة أساس المساواة بين البشر جميعا قبل أن يتشدق بها المتشدقون من علماء الاجتماع ، وما زالت الأمم تخضع لنظام الطبقات ، وتفرق بين الأفراد على غير أساس إلا التوارث والعصبية الباطلة ، حتى جاء الإسلام بدستوره العادل القويم ، فصدع هذه النظم ، وقضى على تلك الفوارق ، وفي تغيير النداء في هذه الآيات من الأسلوب السابق : (يأيها الذين آمنوا) إلى هذا الأسلوب : (يأيها الناس) لطيفة اجتماعية ؛ فيها إشارة إلى أن هذه المساواة تنظم الناس جميعاً ، فهي بمثابة إعلان للوحدة الإنسانية [٢] .

وهذا يدفعنا إلى القول بحتمية فقه الواقع ، الذي هو الأداة الفاعلة لخلق جو من الأخوة الإنسانية التي عنوانها التعايش والتصافي ، وبث روح السلام والاطمئنان بين بني البشر ، وفي مجال الحياة .

٢ . **ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** .

لقد جعل الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم وظائف الجماعة المسلمة وأعظمها [٣] .

وقال جل شأنه :﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون** ﴾ [٤] .

يقول الإمام الغزالي [٥] -رحمه الله- : ففي الآية بيان الإيجاب فإن قوله تعالى : (ولتكن) أمر ، وظاهر الأمر الإيجاب ... وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين ، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض على الآخرين ... [٦] .

وقال ابن كثير : أمر الله في هذه الآية بأن ينتصب من المؤمنين مجموعة تقوم بمهمة الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد وصف الله هذه المجموعة بالفلاح ، على نحو يفيد الترغيب في عمل ذلك ، وهو ما يدل على حرص التشريع على فعله وتحصيله [٧] .

وقال سبحانه وتعالى في وصف المؤمنين : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [٨] .

وهذا يدل على أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [٩] .

---

١ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٦ / ٣٣٤٨ .

٢ . انظر نظرات في كتاب الله ، حسن البنا ، تحقيق عصام تليمة ، ص ٤٦٧ وما بعدها ، نقلاً عن جريدة الإخوان المسلمون الأسبوعية ، العدد ١٥ ، الصادر في ٢٢ من يوليو سنة ١٩٣٥ م .

٣ . في ظلال القرآن ، ٤ / ٢٥ . ٤ . سورة آل عمران ، آية ١٠٤ .

٥ . هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، حجة الإسلام ، فيلسوف ومتصوف ، له نحو مائتي مصنف ، مولده في خرسان وتوفي بها سنة ٥٠٥هـ ، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر ، وعاد إلى بلدته . من كتبه : إحياء علوم الدين ، تهافت الفلاسفة ، الاقتصاد في الاعتقاد ، المنقد من الضلال ، جواهر القرآن ، عقيدة أهل السنة ، الوجيز في فروع الشافعية ، المستصفى في أصول الفقه ، إلجام العوام عن علم الكلام . انظر وفيات الأعيان ٤ / ٥٨ ، الوافي بالوفيات ١ / ٢١١ ، طبقات الشافعية ١ / ٣٠٠ ، شذرات الذهب ٤ / ١٠ ، الأعلام ٧ / ٢٢ .

٦ . إحياء علوم الدين ، الغزالي ٢ / ٤١٩ .

٧ . تفسير ابن كثير ، ١ / ٣٩١ بتصرف . ٨ . سورة التوبة ، آية ٧١ . ٩ . انظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ٤ / ٥٢٩ .

ويقول الرسول ﷺ : (والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم) [١] .

وفي ارتباط خيرية الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يقول المولى عز وجل : ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [٢] .

وإنما صارت أمة محمد ﷺ خير أمة ؛ لأن المسلمين منهم أكثر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفشى[٣] .

وقال ﷺ : (ليس منا من لم يوقر الكبير ويرحم الصغير ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر) [٤] .

ففي الحديث السابق ينفي النبي ﷺ عن الذي يهمل هذه الفريضة انتماءه إلى الأمة الإسلامية انتماء حقيقياً ؛لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص خصائصها ، وألزم واجباتها [٥] .

(ومن قواعد الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : العلم بالمعروف الذي يدعو إليه ، والمنكر الذي ينهى عنه ، جاء عن بعض السلف : (لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان عالما فيما يأمر به ، عالما فيما ينهى عنه ، رفيقا فيما يأمر به ، رفيقا فيما ينهى عنه ، عدلا فيما يأمر به ، عدلا فيما ينهى عنه ، حليما فيما يأمر به ، حليما فيما ينهى عنه) [٦] ، فهذا واضح فكما أن من يعالج المريض يحتاج إلى فهم الدواء أي يكون طبيباً جيداً فكذلك الداعي ، ويستفاد ذلك من قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [٧] ، والبصيرة تشمل ما قلناه) [٨] .

فالعلم بالحال والمكان والزمان ، شرط للقيام بواجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهو لا يتوصل إليه إلا بفقه الواقع ، لذلك فإن فقه الواقع ضرورة بشرية يتسلح بها الدعاة العاملين ؛ لإقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

مما سبق نستنتج أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتم إلا بمعرفة الواقع العملي والإحاطة به خصوصاً إذا كان هذا الواقع معقداً في مضمونه ، ومتشابكاً في جوانبه ، وإذا قلنا بالفرض الكفائي للحسبة وما يترتب عليها ، كان من الضروري واللازم التسليم بفقه الواقع .

٣ . **ضرورة البناء والعمران** .

ففي سياق قصة نبي الله صالح عليه السلام ، يقول الله تعالى : ﴿ **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [٩] .

واستعمركم فيها ، أي : عمركم فيها ، أو جعلكم عمارها ، أي جعلكم قادرين على عمارتها ، كقوله تعالى في الأعراف : ﴿ **وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً** ﴾ [١٠] .

---

١ . أخرجه الترمذي عن حذيفة بن اليمان ، وقال : حديث حسن ، الجامع الصحيح ، رقم ٢١٦٩ ، ٤ / ٢١٥ .

٢ . سورة آل عمران ، آية ١١٠ .

٣ . تفسير القرطبي ، ٢ / ٥٢٧ .

٤ . أخرجه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عباس ، رقم ٢٣٢٩ ، ٣ / ٦٥ ، وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

٥ . انظر منهج القرآن في إصلاح المجتمع ، محمد السيد يوسف ، ص ٣٢٩ .

٦ . الحديث يروى عن سفيان الثوري ، انظر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، خالد السبت ص١٩٧ ، الحسبة لابن تيمية ص ٨٤ .

٧ . سورة يوسف ، آية ١٠٨ .

٨ . انظر أصول الدعوة ، عبد الكريم زيدان ، ص ٤٧٩ .

٩ . سورة هود ، آية ٦١ .

١٠ . محاسن التأويل ، القاسمي ٦ / ١١٢ ، والآية رقم ٧٤ من سورة الأعراف .

وقال الله جل جلاله : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١) .

فهؤلاء أقوام عاشوا قبل جيل المشركين في مكة (كانوا أشد منهم قوة) .. (وأثاروا الأرض) .. فحرثوها وشقوا عن باطنها ، وكشفوا عن ذخائرها وعمروها أكثر مما عمروها ... فقد كانوا أكثر حضارة من العرب ، وأقدر منهم على عمارة الأرض .. ثم وقفوا عند ظاهر الحياة الدنيا لا يتجاوزنه إلى ما وراءه : (وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) .. فلم تنفتح بصائرهم لهذه البينات ، ولم يؤمنوا فتتصل ضمائرهم بالنور الذي يكشف الطريق ، فمضت فيهم سنة الله في المكذبين ، ولم تنفعهم قوتهم ، ولم يغن عنهم علمهم ولا حضارتهم ، ولقوا جزاء ما يستحقون :(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (٢) .

وقال ابن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ (٣) ، أي : مثبت لا يزول ، وملصق بعضه ببعض ، وقال قتادة (٤) – رضي الله عنه – : (كأنهم بنيان مرصوص) ، ألم تر إلى صاحب البيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه ، فكذلك الله عز وجل لا يختلف أمره ، وإن الله صف المؤمنين في قتالهم ، وصفهم في صلاتهم ، فعليكم بأمر الله ، فإنه عصمة لمن أخذ به (٥) .

وفي هذا دليل على وجوب تربية الأمة وبناء الدولة ، من محراب الصلاة إلى ميادين الحياة الفسيحة ، إلى رص وتوحيد الصفوف في ساحات المعارك والوغى .

وفي سياق قصة هود عليه السلام ،يقول الله جل شأنه :﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (٦) .

والريع المرتفع من الأرض ، والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنياناً يبدو للناظر من بعيد كأنه علامة ، وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة ، ومن ثم سماه عبثاً ، ولو كان لهداية المارة ، ومعرفة الاتجاه ما قال لهم : (تعبثون) .. فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد ، وتنفق البراعة ، وينفق المال فيما هو ضروري ونافع ، لا في الترف والزينة ، ومجرد إظهار البراعة والمهارة (٧) .

ومما يدل على الإيجابية في البناء والعمران ، وعلى ضرورة عمارة الأرض بقوانين الله في الأنفس والآفاق ، وبالانسجام مع الواقع قول الرسول ﷺ : (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها) (٨) .

---

١ . سورة الروم ، آية ٩ . ٢ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٥ / ٢٧٦٠ .

٣ . سورة الصف ، آية ٤ .

٤ . هو أبو عبد الرحمن قتادة بن دعامة الدوسي ، مفسر حافظ ضرير أكمه ، قال عنه الإمام أحمد : قتادة أحفظ أهل البصرة ، وكان مع علمه بالحديث رأسا في العربية، وأيام العرب والنسب ، وكان يرى القدر ، وقد يدلس في الحديث ، مات سنة ١١٨ هـ . انظر صفة الصفوة ٢ / ١٧٤ ، وفيات الأعيان ٣ / ٥١١ ، الوافي بالوفيات ٢٤ / ١٤٣ ، الأعلام ٥ / ١٨٩ .

٥ . تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٦ / ٢٠٥ .

٦ . سورة الشعراء ، الآيتان ١٢٨ ، ١٢٩ . ٧ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٥ / ٢٦٠٩ . ٨ . أخرجه أحمد في مسنده ، ، والبخاري في الأدب المفرد ، رقم ٤٧٩ ، ص ١١٩ عن أنس ، وصححه الألباني في الصحيحة ١ / ١١ .

٤ . **ضرورة الاستخلاف والتمكين .**

قال ﷻ : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (١) .

هذا وعد الله لرسوله– ﷺ – بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أي : أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً وحكماً فيهم ... (٢) .

ولهذا ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ...) (٣) .

يقول الشهيد الحي في ظلال هذه الآية : (ذلك منهج حياة كامل ، يتضمن كل ما أمر الله به ، ويدخل فيما أمر الله به من توفير الأسباب ، وإعداد العدة ، والأخذ بالوسائل ، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض ..أمانة الاستخلاف..

فما حقيقة الاستخلاف في الأرض ؟

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم .. إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء ؛ وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه ؛ وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض ، اللائق بخليقة أكرمها الله .

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح ، لا على الهدم والإفساد . وقدرة على العدل والطمأنينة ، لا على الظلم والقهر . وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري ، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان !

وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض – كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم – ليحققوا النهج الذي أراده الله ؛ ويقروا العدل الذي أراده الله ؛ ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله ...

وآية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف قوله تعالى : (**وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ**) .. وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب ، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها . فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض ، وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض . ودينهم يأمر بالإصلاح ، ويأمر بالعدل ، ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض . ويأمر بعمارة الأرض ، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة ، ومن رصيد ، ومن طاقة ، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله) (٤) .

---

١ . سورة النور ، آية ٥٥ .

٢ . تفسير ابن كثير ، ٤ / ٥٦٧ .

٣ . أخرجه مسلم في صحيحه عن ثوبان ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم ٢٨٨٩ ، ٤ / ٢٢١٥ .

٤ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٤ / ٢٥٢٨ .

المـبحـث الثالث
مـظاهـر فقـه الواقـع

لا ينبغي أن ندرس فقه الواقع بعيداً عن عقيدة الإسلام وشريعته ؛ لأن نظام الحياة وقوانين الوجود جزء من الشريعة وترتبط كذلك بالعقيدة ارتباطاً أساسياً ، وارتباط الواقع بعقائد الإسلام وشرائعه يظهر – على سبيل المثال – في نظرة الإسلام إلى الكون باعتباره مسخراً للإنسان ولخدمته ، ويبدو في قضية تنزيل الأحكام العملية على أرض الواقع المعاش ، ويبدو أخيراً في الإصلاحات التي تجرى فيه ، لتحديد مواطن القصور ، وبلوغ مراتب السمو .

ثم إن ارتباط فهم الواقع بعقيدة الإسلام وشريعته ، هو الذي يجعل له طابعاً تعبدياً ، وهدفاً سامياً ، على خلاف الوعي بالمحيط الواقعي في النظم الوضعية .

من هذه الرؤية نحاول بيان مظاهر فقه الواقع التي تتعلق بعقيدة المسلم وعباداته ، وتنعكس في سلوكه ومعاملاته .

فقه الواقع في مجال العقيدة :

العقيدة : هي ما يعقد عليه المرء قلبه وضميره ، والعقد نقيض الحل ، والمعاقدة : المعاهدة والميثاق والإيمان ، واعتقد الشيء : صلب واشتد ، وأصله مأخوذ من عقد الحبل إذا ربطه ، ثم استعمل في عقيدة القلب وتصميمه الجازم [١] .

وبذلك يمكن القول بأن العقيدة : هي ما صلب واشتد عليه القلب وأصبح يقيناً لا يساوره الشك [٢] .

والعقيدة الإسلامية هي الجانب النظري الذي يسميه القرآن الإيمان ، ويعاضدها الشريعة وهي الجانب التطبيقي الذي يعرف في التعبير القرآني بالعمل الصالح ، قال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً**﴾ [٣] ، ولا افتراق بين المفهومين إلا من حيث التقسيم الدراسي الذي يقتضي تبسيط العلوم وتيسيرها ، لذلك قالوا : العقيدة تُعْنى بالجانب التصوري والأخلاقي ، والشريعة تختص بالأحكام من عبادات ومعاملات ، وعلاقات بالكون والحياة .

إذاً فالإسلام يحتم تعانق الشريعة والعقيدة ، بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى ، على أن تكون العقيدة أصلاً تبنى عليه الشريعة ويدفع إليها ، والشريعة أثر تستتبعه العقيدة ، وتلبيةً لانفعال القلب بها ، ومن ثم فلا وجود للشريعة في الإسلام إلا بوجود العقيدة ، كما لا ازدهار للشريعة إلا في ظل العقيدة [٤] .

---

١ . انظر لسان العرب ، ابن المنظور ، ٣ / ٢٩٦ .

٢ . أصول التربية الإسلامية ، د / خالد بن حامد الحازمي ، ص ١٠٥ .

٣ . سورة الكهف ، الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨ .

٤ . انظر الإسلام عقيدة وشريعة ، محمود شلتوت ، ص ١١ .

إن العقيدة في معناها الواقعي التكاملي ، لابد أن تعبر عن نفسها تعبيراً واقعياً في الوجدان ، وفي شعائر العبادة ، وقضايا التهذيب ورياضات النفوس وواقع الحياة ، كل هذه الأبعاد آفاق للعقيدة لا ينبغي أن تسطع في أفق منها محتجبة عن سواه [١] ؛ لذا سوف نذكر فيما يلي أمثلة تبرز مظاهر فقه الواقع التي تتصل بآثار العقيدة ومباحثها :

١ . دافعية العقيدة في فهم الواقع ، وتغيير سلوك الفرد والمجتمع .

دافعية العقيدة في فهم الواقع تنبع من الإيمان الباني الذي يعد محركاً ودافعاً إلى الخضوع للأوامر الإلهية التي توجب قراءة الواقع والإحاطة به ، كضرورة من ضرورات الحياة والدعوة ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ [٢] .

والعقيدة لا تقتصر على دفع المسلم تجاه التأمل والوعي بالواقع ، بل تحمله على أن يثمر هذا الفهم تغييراً في سلوكه ، وفي أوضاع مجتمعه ، وذلك ضمن سياج الدين ومعايير الأخلاق .

فقصة أصحاب الأخدود التي حكاها القرآن في سورة البروج توضح كيف تقف العقيدة حصناً منيعاً ضد الطغيان ، وتفجر الطاقات الهائلة ، وتبعث الحيوية في النفوس ، وتحفز على العمل المثمر البنّاء ، قال ﷻ : ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ [٣] .

(فموضوع القصة هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام – قيل إنهم من النصارى الموحدين – ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين ، وأرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم ، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم . فشق الطغاة لهم شقا في الأرض ، وأوقدوا فيه النار ، وكبوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقا ، على مرأى من الجموع التي حشدها المتسلطون لتشهد مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة ، ولكي يتلهى الطغاة بمشهد الحريق . حريق الآدميين المؤمنين ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد .

كذلك تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة . روعة الإيمان المستعلي على الفتنة , والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض . فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ! إنه معنى كريم جداً ومعنى كبير جداً هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض . ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم ، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار ؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ، ولأعدائهم الطاغين حساب . . يعقب به السياق : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ** ﴾) [٤] .

---

١ . انظر واقعية المنهج القرآني ، توفيق محمد سبع ، ص ٢٦٠ .

٢ . سورة التوبة ، آية ١٢٢ .

٣ . سورة البروج ، الآيات ٤ . ٨ .

٤ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٦ / ٣٨٧١ ، والآيتان ١٠ ، ١١ من سورة البروج .

٢ . المنهج القرآني في تقرير عقيدة التوحيد .

من خصائص هذا المنهج الواقعية ، أنه فطري وعقلي ، فطري بمعنى أن النفس البشرية السوية منذ نشأتها الأولى تتماشى وتنسجم مع حقائق العقيدة ، وتستسلم لنداء التوحيد ، كما قال ﷻ : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وعقلي عندما يؤكد على صحة العقيدة الإسلامية بالأدلة المنطقية والواقعية ، ويحث العقل على النظر والتفكر في آيات الله وبديع صنعه ، قال تعالى ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

ومن تأمل القرآن الكريم وجد العديد من الشواهد القرآنية الفعلية الدالة على وحدانية الله ، وصدق الوحي والنبوة ، وإمكان البعث ، وغير ذلك من حقائق الإيمان (٣) :

ففي مجال وحدانية الله تعالى ، يقول الله ﷻ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ ﴾ (٤) ، ويقول تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٥) .

وفي مجال إبطال الشرك وتعدد الشركاء ، قوله تعالى : ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ (٧) .

وفي مجال إثبات الوحي ، وتقرير نبوة محمد – ﷺ – ، يقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٨) ، ويقول سبحانه : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٩) .

وفي مجال تقرير البعث ، قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (١٠) ، وقوله : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (١١) .

---

١ . سورة الروم ، آية ٣٠ .

٢ . سورة يونس ، آية ١٠١ .

٣ . انظر عقيدتنا الإسلامية ، مجموعة مؤلفين ، ص ٤٥ .

٤ . سورة الطور ، الآيات ٣٥ – ٣٦ .

٥ . سورة الأنبياء ، آية ٢٢ .

٦ . سورة الأعراف ، آية ١٩١ .

٧ . سورة لقمان ، آية ١١ .

٨ . سورة الأعراف ، آية ١٨٤ .

٩ . سورة هود ، آية ١٣ .

١٠ . سورة يس ، الآيات ٧٧ – ٧٩ .

١١ . سورة القيامة ، الآيات ٣٦ – ٤٠ .

٣ . ذكر أهل الديانات الأخرى وعقائدهم المنحرفة .

وفيه لفتة إلى قراءة تاريخ الأمم السابقة ودراسة علم مقارنة الأديان ، ودعوة الناس قاطبة إلى الاعتبار بمن سبقم ، حتى يتجنبوا سنن الله النافذة في القوم الذين عتوا عن أمر ربهم ، فحاسبهم حساباً شديداً وعذبهم عذاباً نكراً ، قال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ (١) ، ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ** ﴾ (٢) ، ﴿**فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا** ﴾ (٣) .

ويقول جل شأنه : ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً وَعَاداً وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً**﴾ (٤) .

هذه الأمثلة كلها من قوم موسى ونوح ، وعاد وثمود وأصحاب الرس والقرون الكثيرة بين ذلك ، ومن القرية التي أمطرت مطر السوء – وهي قرية لوط – كلها تسير سيرة واحدة وتنتهي نهاية واحدة ، (وكلا ضربنا له الأمثال) للعظة والاعتبار، (وكلا تبرنا تتبيرا) وكانت عاقبة التكذيب هي التحطيم والتفتيت والدمار (٥) .

٤ . النهي عن سب الآلهة التي تعبد من دون الله .

وهو أمر عقدي ، يقوم على موازنات دعوية في ساحة الواقع ، من باب ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها ، قال تعالى : ﴿ **وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (٦) .

إن الطبيعة التي خلق الله الناس بها ، أن كل من عمل عملاً ، فإنه يستحسنه ، ويدافع عنه! فإن كان يعمل الصالحات استحسنها ودافع عنها . وإن كان يعمل السيئات استحسنها ودافع عنها . وإن كان على الهدى رآه حسناً ، وإن كان على الضلال رآه حسناً كذلك! فهذه طبيعة في الإنسان . . وهؤلاء يدعون من دون الله شركاء . . مع علمهم وتسليمهم بأن الله هو الخالق الرازق . . ولكن إذا سب المسلمون آلهتهم هؤلاء اندفعوا وعدوا عما يعتقدونه من ألوهية الله ، دفاعاً عما زين لهم من عبادتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وتقاليدهم! . . فليدعهم المؤمنون لما هم فيه :(ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) . .

وهو أدب يليق بالمؤمن ، المطمئن لدينه ، الواثق من الحق الذي هو عليه . الهادئ القلب ، الذي لا يدخل فيما لا طائل وراءه من الأمور (٧) .

---

١ . سورة الروم ، آية ٩ .
٢ . سورة الروم ، آية ٤٢ .
٣ . سورة محمد ، آية ١٠ .
٤ . سورة الفرقان ، الآيات ٣٥ – ٤٠ .
٥ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٥ / ٢٥٦٤ .
٦ . سورة الأنعام ، آية ١٠٨ .
٧ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٢ / ١١٦٩ .

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية السابقة : (يقول الله تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين سب آلهة المشركين ، وإن كان فيه مصلحة ، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين وهو الله لا إله إلا هو .

وعن ابن عباس في هذه الآية: قالوا: يا محمد، لتنتهين عن سبك آلهتنا، أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم، (فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) ، وعن قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسب الكفار الله عدوا بغير علم، فأنزل الله: (وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) (١) .

ومن هذا القبيل – وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها – ما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (من الكبائر شتم الرجل والديه قالوا يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه) (٢) .

٥ . بشرية الرسل ، وما تتطلبه من فقهٍ للواقع .

إن من حكمة الخالق عز وجل ، وكمال تدبيره ، أن أرسل إلى عباده رسلاً منهم ، فيهم صفات البشر وميزات الوحي ، إنهم : ﴿ **لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ** ﴾ (٣) ، لذلك أعلنوها واضحة لبني جلدتهم : ﴿ **إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** ﴾ (٤) ، فلا تمايز في الإنسانية بل أخوة في الجنس والوطن والدين .

فهذه الحقيقة ردٌ على أقوامٍ قالوا : ﴿ **أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا** ﴾ (٥) ، (وهو اعتراض فج ناشئ عن الجهل بطبيعة الرسالة ، وكونها منهجاً إلهياً للبشر ، فلا بد أن تتمثل واقعياً في بشر ، يحيا بها ، ويكون بشخصه ترجماناً لها؛ فيصوغ الآخرون أنفسهم على مثاله بقدر ما يستطيعون .

ولا ينعزل هو عنهم بجنسه ، فيتعذر أن يجدوا للرسالة صورة واقعية يحاولون تحقيقها في ذوات أنفسهم ، وفي حياتهم ومعاشهم . وناشئ كذلك من الجهل بطبيعة الإنسان ذاته ورفعة حقيقته بحيث يتلقى رسالة السماء ويبلغها ، بدون حاجة إلى أن يحملها إلى الناس ملك كما كانوا يقترحون . ففي الإنسان تلك النفخة من روح الله! وهي تهيئة لاستقبال الرسالة من الله ، وأدائها كاملة كما تلقاها من الملأ الأعلى . وهي كرامة للجنس البشري كله لا يرفضها إلا جاهل بقدر هذا الإنسان عند الله) (٦) .

هكذا نلمح ارتباط خصيصة البشرية بفقه الواقع كما سنبينه لاحقاً . وهي صفة لازمة للرسل تستوجب عليهم الاجتهاد المسدد بنور الوحي ، والفهم الواعي للأحداث والوقائع التي عايشوها ، وهو ارتباط آخر بفقه الواقع سنوضحه في الفصل الثالث ، حيث أن القصص القرآني منبع من منابع فقه الواقع في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (٧) ، ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (٨) .

---

١ . تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٣ / ٦٩ .

٢ . أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ، كتاب الإيمان ، باب بيان الكبائر وأكبرها ، حديث رقم ٩٠ ، ١ / ٩٢ .

٣ . سورة الفرقان ، آية ٢٠ .

٤ . سورة إبراهيم ، آية ١١ .

٥ . سورة التغابن ، آية ٦ .

٦ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٦ / ٣٥٨٦ .

٧ . سورة الأعراف ، آية ١٧٦ .

٨ – سورة هود ، آية ١٢٠ .

والقرآن الكريم حريص كل الحرص في شتى المناسبات على تأكيد بشرية الرسول محمد – ﷺ – ، بمثل قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (١) ، وقوله : ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ (٢) .

ولهذا رأيناه ﷺ يأكل ويشرب ويتزوج وينجب ، ويفرح ويحزن ، ويرضى ويسخط ، ويصيب ويخطئ ، ويذكر وينسى ، ويمارس ما يمارسه كل بشر عادي إلا ما كان فيه إثم أو دناءة مما لا يليق بمنصب الرسالة ، وبهذا صلح أن يكون قدوة للبشر ، كل البشر : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (٣) .

فمن أفعاله وأقواله – ﷺ – التي تدل على بشريته ، وتقتضي إعمال الفكر وفقه الواقع ، قصة تأبير النخل وتلقيحه الواردة في الحديث الذي يرويه رافع بن خديج (٤) : أن النبي ﷺ قدم المدينة وهم يأبرون النخل يقولون يلقحون النخل فقال ما تصنعون ؟ قالوا كنا نصنعه قال لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا فتركوه فنفضت أو فنقصت (٥) قال فذكروا ذلك له فقال إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر (٦) ، وفي رواية : **أن** النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون فقال لو لم تفعلوا لصلح قال فخرج شيصا (٧) فمر بهم فقال ما لنخلكم ؟ قالوا قلت كذا وكذا قال أنتم أعلم بأمر دنياكم (٨) .

ومنها مواقفه التكتيكية والسياسية في مواجهة الأعداء ، بما تتطلبه من حركة ووعي وتقدير لكل الجوانب والملابسات ، نجده في يوم الأحزاب مثلاً يأخذ برأي سلمان في حفر الخندق حول المدينة ، ويشاور بعض رؤساء الأنصار في إمكان إعطاء بعض المهاجمين مع قريش جزءاً من ثمار المدينة ، ليردهم ويفرقهم عن حلفائهم ، كسباً للوقت إلى أن يتغير الموقف ، ويقول لنعيم بن مسعود الأشجعي(٩) – وقد أسلم وأراد الانضمام إلى صفوف المسلمين : (إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا ما استطعت ، فإنما الحرب خدعة) (١٠) .. فيقوم الرجل بدور له شأنه في التفريق بين قريش وغطفان ويهود بني قريضة (١١) .

---

١ . سورة الكهف ، آية ١١٠ . ٢ . انظر الخصائص العامة للإسلام ، القرضاوي ، ص ٦١ ، والآية ٩٣ من سورة الإسراء .

٣ . المصدر السابق ، ص ٦١ ، والآية رقم ٢١ من سورة الأحزاب .

٤ . هو رافع بن خديج بن رافع الأنصاري الأوسي الحارثي : صحابي، كان عريف قومه بالمدينة، وشهد أحدا والخندق. توفي في المدينة متأثرا من جراحه سنة ٧٤ هـ و له في كتب الحديث ٧٨ حديثا . انظر أسد الغابة ٢ / ٢٣٢ ، الإصابة في تمييز الصحابة ترجمة رقم ٢٥٢٨ ، ٢ / ٤٣٦ ، الوافي بالوفيات ١٤ / ٤٦ ، شذرات الذهب ، الأعلام ٣ / ١٢ .

٥ . فنفضت أو فنقصت أي : أسقطت ثمرها . انظر لسان العرب لابن منظور ، ٧ / ١٠١ ، وأساس البلاغة للزمخشري ، ص ٦٤٧ .

٦ . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الفضائل ، باب وجوب امتثال ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي ، رقم ٢٣٦٢ ، ٤ / ١٨٣٥.

٧ . الشيص : هو البسر الرديء من التمر ، الذي إذا يبس صار حشفا ، قال ابن المنظور: وإنما يشيص إذا لم يلقح . انظر لسان العرب ،٧/ ٥٠ .

٨ . أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس ،كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي ، رقم٢٣٦٣ ،٤/١٨٣٦.

٩ . صحابي من ذوي العقل الراجح ، قدم على النبي ﷺ وسكن المدينة وقصته مشهورة يوم الخندق ، وكان رسول النبي ﷺ إلى ابن ذي اللحية ، ومات في خلافة عثمان نحو ٣٠ هـ ، وقيل قتل يوم الجمل . انظر الطبقات الكبرى ٤ / ٢٠٩ ، أسد الغابة ٥ / ٣٢٨ ، الوافي بالوفيات ٢٧ / ٩٧ ، شذرات الذهب ، الأعلام ٨ / ٤١ .

١٠ . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة عن عبد الله بن كعب بن مالك، رقم ١٣٢٩، ٣ /٤٠٤ ، وضعفه الألباني في ضعيف وصحيح الجامع الصغير وزيادته ، رقم ٦٥٦٤ ، ص ٦٥٧ .

١١ . انظر الخصائص العامة للإسلام ، القرضاوي ، ص ٢١٢ .

وفي يوم الحديبية تظهر بشريته في التخطيط ، وهو يقول : (والله لا تدعوني قريش إلى خطة يسألونني فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها ...) [١] .

وتتمثل أيضا البشرية في اجتهاده في الأحكام الشرعية المتعلقة بالواقع وفقهه ، فقد قال : (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر) [٢] . فقرر بذلك مبدأ الاجتهاد لاستنباط الحكم الشرعي لكل واقعة تحدث إما من نص أو من قياس ، أو غير ذلك من اعتبار المصالح التي جاء بها الشرع ، كما قرر أن المجتهد في ذلك مأجور مثاب عند الله ، وإن أخطأ محل الصواب [٣] .

٦ . التوكل على الله مع استصحاب الأسباب ، وما تستدعيه من فقهٍ للواقع .

حقيقة التوكل :

التوكل : مشتق من الوكالة . يقال : وكل أمره إلى فلان ، أي فوضه إليه ، واعتمد عليه فيه . ويسمى الموكول إليه وكيلاً ، ويسمى المفوِض إليه متكلاً عليه ، ومتوكلاً عليه ، مهما اطمأنت إليه نفسه ، ووثق به ، ولم يتهمه فيه بتقصير ، ولم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً ، فالتوكل : عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده [٤] .

قال ابن القيم – رحمه الله – موضحاً حقيقة التوكل بعد أن ذكر تعريفات القوم واختلافها : (وحقيقة الأمر أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها ، وكل أشار إلى واحد من هذه الأمور أو اثنين أو أكثر ، وإجمالاً هذه الأمور أو الدرجات هي : معرفة بالرب وصفاته ، وإثبات في الأسباب والمسببات ، ورسوخ القلب في مقام التوكل ، واعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه ، وحسن الظن بالله عز وجل ، واستسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعاته ، والتفويض وهو روح التوكل ولبه وحقيقته ، ثم قال : فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة انتقل منها إلى درجة الرضى وهي ثمرة التوكل) [٥] .

وقال الغزالي : اعلم أن التوكل من باب الإيمان ، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل ، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل ، وعمل وهو الثمرة ، وحال هو المراد باسم التوكل [٦] .

وبهذا نتبين أن التوكل – كسائر أبواب الإيمان ومقامات الارتقاء الروحي – تشمل على جوانب ثلاثة : الجانب المعرفي الإدراكي .. والجانب الوجداني العاطفي (الذي يعبر عنه بالحال) ، والجانب الإرادي السلوكي الذي يعبر عنه بالعمل [٧] .

من هذا المعنى نرى أن التوكل يترك أثره في الفهم والشعور ، ويوجه المسلم إلى العمل الهادف والسلوك الصائب ، ومن ثم يرتبط بوجه أو بآخر بفقه النفس والواقع الذي تتحرك فيه وتتأثر به .

---

١ . أخرجه أحمد في مسنده عن مسور بن مخرمة ومروان بن الحكم في وقعة الحديبية ، رقم ١٨٨١٢ ، ١٤ / ٣٠٤ ، وقال المحقق : إسناده حسن .

٢ . متفق عليه ، عن عمرو بن العاص ، كتاب الأقضية ، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد ، اللؤلؤ والمرجان ، رقم ١١١٨ ، ص ٣٥٦ .

٣ . الخصائص العامة للإسلام ، القرضاوي ، ص ٢١٦ . ٤ . انظر إحياء علوم الدين ، الغزالي ، كتاب التوبة ، بيان حال المتوكل، ٤ / ١٥٨ .

٥ . انظر مدارج السالكين ، ابن القيم ، ٢ / ١١٤ .

٦ . انظر إحياء علوم الدين ، الغزالي ، ٤ / ١٤٠ . ٧ . التوكل ، القرضاوي ، ص ٢٢ .

فضل التوكل في القرآن والسنة :

التوكل باب من أفضل أبواب العقائد ، وخلق من أجل أخلاق الإيمان ، وهو كما قال الإمام الغزالي : منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات الموقنين ، بل هو من معالي درجات المقربين (١) ، بل هو كما قال الإمام ابن القيم : التوكل نصف الدين ، والنصف الآخر الإنابة ، كما قال تعالى : ﴿ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ (٣) ، فالدين عبادة هي الإنابة ، وتوكل هو الاستعانة .

وحاجة المسلم – السالك لطريق الله – إلى التوكل حاجة شديدة ، وخصوصاً في قضية الرزق الذي شغل عقول الناس وقلوبهم ، وأحوج ما يكون المسلم إلى التوكل إذا كان صاحب دعوة ، وحامل رسالة ، وطالب إصلاح ، فهو يجد في التوكل ركناً ركيناً ، وحصناً حصيناً ، يلوذ به في مواجهة طواغيت الكفر ، وفراعنة الظلم ، وقوارين البغي ، وهوامين الفساد . فهو ينتصر بالله ، ويستعز بالله ، ومن انتصر بالله فلن يغلب أبداً ، ومن استغنى به فلن يفتقر أبداً ، ومن استعز بالله فلن يذل أبداً : ﴿ **إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ (٤) .

لذلك كان التوكل سجية (٥) لرسل الله جميعاً ، منذ نوح عليه السلام شيخ المرسلين إلى محمد ﷺ خاتم النبيين ، كما قال تعالى على لسان رسله جميعاً :﴿ **وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ (٦) .

وأمر الله به رسوله ﷺ فقال : ﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ (٧) ، ﴿ **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ (٨) ، ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾ (٩) .

وأمر الله – عز وجل – به عباده المؤمنين عامة ، بقوله : ﴿ **قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ (١٠) ، وعلى ألسنة الرسل السابقين كما في قوله تعالى : ﴿ **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ (١١) ، وجعله من الأوصاف الأساسية للمؤمنين الصادقين : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ (١٢) .

---

١ . إحياء علوم الدين ، الغزالي ، ٤ / ١٣٧ .
٢ . سورة هود ، آية ٨٨ .
٣ . سورة الفاتحة ، آية ٥ .
٤ . انظر التوكل ، القرضاوي ، ص ٩ ، والآية ١٦٠ من سورة آل عمران .
٥ . السجية : الطبيعة والخُلق . انظر لسان العرب لابن منظور ، مادة سجا ، ١٤ / ٣٧٢ .
٦ . سورة إبراهيم ، الآية ١٢
٧ . سورة هود ، آية ١٢٣ .
٨ . سورة آل عمران ، آية ١٥٩ .
٩ . سورة الأحزاب ، آية ٣ .
١٠ . سورة التوبة ، آية ٥١ .
١١ . سورة إبراهيم ، آية ١١ .
١٢ . سورة الأنفال ، الآيات ٢ – ٤ .

أما عن آثار التوكل ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (١) ، وجعل الإيمان شرطاً للتوكل في قوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، كما أخبر تعالى أنه : ﴿ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٣) .

والسنة النبوية أكدت ما جاء في فضل التوكل ، ففي حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب من هذه الأمة ، قال الرسول ﷺ في وصفهم : (هم الذين لا يسترقون ، ولا يتطيرون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون) (٤) .

وعن عمر – رضي الله عنه – مرفوعاً : (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً) (٥) .

التوكل ورعاية الأسباب :

هذه الشعبة أو هذا المقام أو الخُلق الرباني ، من المقامات التي دخل فيها خلط وسوء فهم عريض ، حتى التبس التوكل بالتواكل واطراح الأسباب ، وبذلك خرج التوكل عن نظام السنن التي أقام الله عليها هذا الخلق ، وربطها بشبكة الأسباب والمسببات (٦) .

إن التوكل على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب ، بل يسيران جنباً إلى جنب في خطين متوازين ، فالتوكل هو عمل القلب الباطن ، والأسباب هي الحركة الظاهرة التي تُفسَر بقوانين الكون ونواميس الوجود ، وبذلك نجد أن عالم الواقع يرتبط ارتباطاً وثيقاً واضحاً مع مبحث التوكل من هذه الزاوية ، فلكي يتم رعاية الأسباب والتعامل معها لابد من إدراك الواقع الذي تسري فيه وتتشكل في وعائه ، وذلك بالمعادلات والبراهين الكونية الدالة عليها .

ثم إن العقيدة الإسلامية وسط بين الجبرية والقدرية ، أو التسيير والتخيير ، فالتوكل فيه الإرادة الإلهية هي الغالبة ، ورعاية الأسباب والأخذ بها تعطي مجالاً أوسع للإرادة البشرية ، وهذا أمرٌ نسبي في مفهومات البشر وحدود طاقاتهم ، أما عند الله فإن الأمر كله إليه من قبل ومن بعد .

واستدل بضرورة استصحاب الأسباب مع التوكل على الله ، بالحديث المشهور عن أنس بن مالك قال : جاء رجل على ناقة له ، فقال : يا رسول الله ؛ أدعها وأتوكل ؟ ، أو أرسلها وأتوكل ؟ فقال ﷺ : (اعقلها وتوكل) (٧) ، ويقول أيضاً في الحديث المذكور آنفاً : (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً) . وفيه إشارة إلى التسبب ؛ لأنه لم يضمن لها الرواح بطاناً ، إلا بعد أن غدت خماصاً ، والغدو حركة وانتشار (٨) .

---

١ . سورة الطلاق ، آية ٣ . ٢ . سورة المائدة ، آية ٢٣ .

٣ . سورة آل عمران ، آية ١٥٩ .

٤ . متفق عليه،عن ابن عباس،اللؤلؤ والمرجان، كتاب الإيمان،باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، رقم١٣١، ص٥٤ .

٥ . أخرجه الترمذي ، كتاب الزهد ،باب في التوكل على الله ، رقم ٢٣٤٤ ، ٤ / ٣٠٢ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

٦ . انظر التوكل ، القرضاوي ، ص ٨ .

٧ .أخرجه الترمذي،كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ،رقم٢٥١٧ ، ٤/ ٣٨٢ ،وبهذه الصيغة انفرد به الترمذي وقال: عندي منكر ، وله شاهد من حديث أمية الضمري عند ابن حبان في صحيحه ،رقم ٧٣١ ، ٢ / ٥١٠ ، والحاكم في المستدرك بلفظ " قيدها وتوكل" وقال الذهبي : سنده جيد .

٨ . التوكل ، القرضاوي ، ص ٣٨ .

وفي سيرته ﷺ ومغازيه ، وفي سنته التي تشمل أقواله وأفعاله وتقريراته ، نماذج حية وواقعية ، تشيد بمراعاة الأسباب والعمل الجاد في الواقع ، مع توكله على الله عند العزم والإقدام ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (١) ، وعلى هديه ومنواله سار الصحابة والسالكون من بعدهم ، جامعين بين الاعتماد على المسبّب ومراعاة السبب .

والقرآن يشير إلى حتمية الأخذ بالأسباب في قصصه وكثير من توجيهاته (٢) :

فهذا يعقوب عليه السلام يقول ليوسف بعد أن ذكر له رؤياه : ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً ﴾ (٣) ، ونراه بعد ذلك يخاف على بنيه عند توجههم إلى مصر ، فيوصيهم قائلاً : ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٤) .

وسواء أكان يخشى عليهم العين – كما قيل – أو يخشى أمراً آخر يتعلق بالسياسة ، فقد أعطى الأسباب حقها ، وترك النتائج لله تعالى ، ولحكمه الكوني في الخلق ، وهنا يكون التوكل حقاً : ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

وهذا يوسف الصديق عليه السلام يضع لإنقاذ مصر من القحط والمجاعة خطة خمس عشرية – ٧ سنين خصب ، و٧ سنين قحط، وسنة يغاث فيها الناس – ، وقام هو على تنفيذها ، وأساسها زيادة الإنتاج في سنوات الخصوبة السبع ، مع تقليل الاستهلاك ، وخزن القمح في سنبله " إلا قليلا مما يأكلون " ، ثم الاستهلاك بقدر وحساب – من المخزون – خلال سنوات الجدب ، بحيث يكفي السبع الشداد كلها ، كما أشار إلى ذلك القرآن : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ (٥) . وفي قوله : ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ يفيد أن الاستهلاك مقدر محسوب ، مثل التوزيع بالبطاقات ونحو ذلك ، وفي قوله : ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ إشارة إلى استبقاء الحبوب لتستخدم بذوراً عندما يجيء الغيث ويبعث الله الماء . وإلا لم يكن للماء فائدة إذا انعدمت البذور .

وقد قام يوسف بهذه المهمة ، ونجى الله على يديه مصر وما حولها من البلاد ، ببركة هذا التخطيط المحسوب ، ولا يضر ذلك أن كان أساسه رؤيا صادقة ، فالمهم أن الرؤيا أفادت علماً بمشكلة وأزمة ، فطلبت حلاً ، وكانت خطة يوسف هي الحل ، ولم يكن في ذلك ما ينافي التوكل على الله تعالى ، كيف وقد قام عليه نبي مرسل ، وسجله الله في أعظم كتبه .

وقد أمر الله تعالى الصديقة البتول مريم عليها السلام أن تهز بجذع النخلة ليتساقط عليها الرطب ، رعاية للأخذ بالأسباب ظاهراً ، وإن كان الأمر كله آية وكرامة لمريم ، قال تعالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ﴾ (٦) .

---

١ . سورة آل عمران ، آية ١٥٩ .
٢ . انظر التوكل ، د / القرضاوي ، ص ٣٩ وما بعدها .
٣ . سورة يوسف ، آية ٥ .
٤ . سورة يوسف ، آية ٦٧ .
٥ . سورة يوسف ، آية ٤٨ .
٦ . سورة مريم ، الآيتان ٢٥ ، ٢٦ .

وفي ذلك يقول الشاعر :

توكل على الرحمن في الأمر كله * * ولا ترغبن في العجز يوماً عن الطلب
ألم تر أن الله أوحى لمريم * * وهزي إليك الجذع تساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزها * * جنته ، ولكن كل شيء له سبب [١] .

وفتية أهل الكهف الذين أثنى الله عليهم ، وخلّد ذكرهم في كتابه ، وقال : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾ [٢] حين آووا إلى الكهف حملوا معهم بعض النقود من (الوَرِق) أي الفضة ، ليستطيعوا بها شراء بعض ما يريدون ، كما دل على ذلك قوله تعالى : ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ [٣] ، ولم يكن ذلك منافياً لتوكلهم على الله تعالى .

وقد وصف الله تعالى روّاد بيوته التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، فقال : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ [٤] فلم يصفهم بعطالة ولا بطالة ، بل جعل لهم تجارة وبيعاً ، فهم " رجال أعمال " ولكن ذلك لا يلهيهم ولا يشغلهم عن ذكر الله ، وأداء حق الله .

وقال تعالى في شأن الحج : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [٥] .
جاء عن ابن عباس أن أناساً من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ، ويقولون : نحن المتوكلون ! فإذا قدموا مكة سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا . . . ﴾ الآية [٦] .

فقه الواقع في مجال العبادة :

قال صاحب المنار رحمه الله مفسراً معنى العبادة : (تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصراح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية . ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها ، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها ، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه ، فمن ينتهي إلى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال إنه عبده ، وإن قبّل موطئ قدمه ، مادام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعهود ، أو الرجاء بكرمه المحدود ، اللهم إلا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ؛ لأنهم أطيب الناس عنصراً وأكرمهم جوهراً ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد إلى الكفر والإلحاد ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً وعبدوهم عبادة حقيقة) [٧] .

---

١ . انظر المستطرف في كل فن مستظرف ، أبو الفتح الأبشيهي ، ٢ / ٥٤٨ ، وهي تنسب إلى الثعالبي اللغوي ، اسطوانة الموسوعة الشعرية.
٢ . سورة الكهف ، آية ١٣ . ٣ . سورة الكهف ، آية ١٩ .
٤ . سورة النور ، الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .
٥ . سورة البقرة ، آية ١٩٧ .
٦ . انظر تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ١ / ٤٨٤ ، وأخرجه البخاري ، كتاب الحج ، باب قول الله تعالى : وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، رقم ١٥٢٣ ، ٣ / ٤٦٨ .
٧ . تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ، محمد رشيد رضا ، ١ / ٥١ .

ولقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – عن قول الله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [١] : فما العبادة وفروعها ؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا ؟ فأجاب رحمه الله : (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة : فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضاء بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادات لله) [٢] .

فمدلول العبادة في القرآن لا يقتصر على الفرائض ، فالحياة في منهجه وحدةٌ ، كل ما فيها لله ، لا يفصل بين طريق الدنيا والآخرة ، ولا يفرق بين الفرائض والسلوك ، ويجعل كل حركة في حياة المسلم وثيقة الصلة بعقيدته ، متجهاً بها إلى ربه ، منفذاً بها أمره ومحققاً رسالته ، كما قال سبحانه :﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [٣] .

﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي** ﴾ أي: ذبحي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له ، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح ، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى . ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله. وقوله: ﴿ **وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي** ﴾ أي: ما آتيه في حياتي، وما يجريه الله عليَّ، وما يقدر عليَّ في مماتي، الجميع ﴿ **لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ ،﴿ **لا شَرِيكَ لَهُ** ﴾ في العبادة ، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداعا مني، وبدعا أتيته من تلقاء نفسي، بل ﴿ **بِذَلِكَ أُمِرْتُ** ﴾ أمراً حتماً، لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله ﴿ **وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ من هذه الأمة [٤] .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تأويل الآية السابقة : إنه التجرد الكامل لله ، بكل خالجة في القلب وبكل حركة في الحياة . وبالصلاة والاعتكاف . وبالمحيا والممات . بالشعائر التعبدية ، وبالحياة الواقعية ، وبالممات وما وراءه . إنها تسبيحة « التوحيد » المطلق ، والعبودية الكاملة ، تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات ، وتخلصها لله وحده . لله ﴿ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ . . القوام المهيمن المتصرف المربي الموجه الحاكم للعالمين . . في « إسلام » كامل لا يستبقي في النفس ولا في الحياة بقية لا يعبدها لله ، ولا يحتجز دونه شيئاً في الضمير ولا في الواقع . . ﴿ **بِذَلِكَ أُمِرْتُ** ﴾ . فسمعت وأطعت : ﴿ **وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [٥] .

---

١ . سورة البقرة ، آية ٢١ .

٢ . رسالة العبودية ، ابن تيمية ، ص ٤٣ .

٣ . انظر منهج القرآن في التربية ، محمد شديد ، ص ١٦١ ، والآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

٤ . تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن السعدي ، ص ٢٨٤ .

٥ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٢٤٠ .

وهنا نورد بعض الجوانب التعبدية ، التي نلمس فيها فقه الواقع ومتعلقات الواقع :

١ . ربط العبادات بمنافع الحياة ، وأثرها في صلاح الفرد والمجتمع .

الأصل في العبادات أنها تؤدي امتثالاً لأمر الله ، وأداء حقه على عباده ، وشكراً لنعمائه التي لا تنكر ، وليس من اللازم أن تكون لهذه العبادات ثمرات ومنافع في حياة الإنسان المادية ، وليس من الضروري أن يكون لها حكمة يدركها عقله المحدود . الأصل فيها أنها ابتلاء لعبودية الإنسان لربه ، فلا معنى لأن يدرك السر في كل تفصيلاتها . فالعبد عبد والرب رب ، وما أسعد الإنسان إذا عرف قدر نفسه !

وَكَم لِلّهِ مِن سرٍ خَفيٍّ * * يَدِقُّ خَفاهُ عَن فَهمِ الذَكيِّ (١) .

الصلاة وأثرها في الحياة :

فهي تكرر خمس مرات في اليوم ، لتكون حماماً روحياً للمسلم يتطهر بها من غفلات قلبه وأدران خطاياه ، وبذلك هي وجبات الغذاء اليومي للروح ، كما أن للمعدة وجباتها اليومية ، وقد مثل النبي ﷺ هذا المعنى في حديثه الشريف فقال : (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يبقي من درنه . قالوا لا يبقى من درنه شيئاً قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا) (٢) .

ومن لوازمها وشروطها : النظافة والتطهر ، والتزين والتجمل ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا** ﴾ (٣) ، ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ (٤) ، وأثنى القرآن على أهل قباء أو المسجد النبوي لحرصهم على التنظف والتطهر ، في الاستنجاء بالماء بدل الاستجمار بالحجارة : ﴿ **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾ (٥) .

والصلاة تغرس في مقيمها الروح الرياضية ، وتقوي عضلات بدنه ، فهي تتطلب اليقظة المبكرة ، والنشاط الذي يستقبل اليوم من قبل طلوع الشمس ، وهي بكيفيتها المأثورة عن رسول الله ﷺ أشبه بالتمرينات الرياضية الفنية التي يقوم بها الرياضيون المحدثون ، لتقوية الجسم ورياضة أعضائه (٦) .

وهي قوة خلُقية يتقوى بها المؤمن على نوازع الشر ، ويتزود من منابع الخير ، وتنهاه عن الفواحش والموبقات ما ظهر منها وما بطن ، يقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ** ﴾ (٧) ، ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** ﴾ (٨) .

---

١ . انظر العبادات في الإسلام ، د/ القرضاوي ، ص ٢٠٦ ، والبيت ينسب للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، اسطوانة الموسوعة الشعرية .

٢ . انظر المصدر السابق ، ص ٢١٤ ، والحديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب الصلوات الخمس كفارة ، رقم ٥٢٨ ، ٢ / ١٥ .

٣ . سورة المائدة ، آية ٦ .

٤ . سورة الأعراف ، آية ٣١ .

٥ . سورة التوبة ، آية ١٠٨ .

٦ . العبادات في الإسلام ، القرضاوي ، ص ٢١٨ .

٧ . سورة المعارج ، الآيات ١٩ – ٢٣ .

٨ . سورة العنكبوت ، آية ٤٥ .

كما أنها كذلك قوة روحية نفسية تعين المؤمن على مواجهة متاعب الحياة ومصائب الدنيا . ولذا قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ (١) ، ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ (٢) ، وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمرُ صلى (٣) .

والصلاة الإسلامية تربية اجتماعية رشيدة ، ومدرسة إنسانية عالية ، على نسق فريد في تاريخ الأديان والعبادات ، فالإسلام لم يكتف من المسلم أن يؤدي الصلاة وحده في عزلة عن المجتمع الذي يحيا فيه ، ولكنه دعاه دعوة قوية إلى أدائها في جماعة وبخاصة في المسجد ،وهمّ الرسول أن يحرق على قوم بيوتهم ؛ لأنهم يتخلفون عن الجماعات (٤) . فإن لم تكن هذه الجماعة واجباً فهي أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة في نظر الإسلام (٥) .
وهي بعد ذلك تربية عسكرية قوامها الطاعة والنظام ، وهذا الذي يظهر في صفوف الجماعة المتراصة التي يؤمها إمام واحد ، وبهيئة واحدة ، ولاتجاه واحد ، ولرب واحد (٦) .

فقه الصيام ،وأسرار الصوم المتعلقة بالنفس البشرية :

هناك مسائل فقهية في الصوم تتعلق بفقه الواقع ، مثلاً : تحديد الرؤية بالحساب الفلكي والتقدير الزمني ، وما يقع في الصوم ويستدعي فقهاً طبياً معيناً ، مثل : هل يؤدي إلى الإفطار استعمال الحقن العضلية والشرجية ، واستخدام مريض الربو البخاخة الهوائية .

أما أسرار الصوم وآثاره على النفس ، فمنها تقوية الروح ، فالله فرض الصيام ليتحرر الإنسان من سلطان غرائزه ، وينطلق من جسده ، ويتغلب على نزعات شهوته ، ويتحكم في مظاهر حيوانيته ، ويتشبه بالملائكة ، وفي هذا المعنى تقوى الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، كما قال ﷻ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ (٧) .

ومنها تقوية البدن ، فقد أثبت الطب الحديث أن كثيراً من الأمراض والأسقام تنشأ من التخمة والإسراف في الأكل ، والحل هو الاقتصاد في الأكل والصوم ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال : (صوموا تصحوا) (٨) .

وفي الصوم تقوية للإرادة ، وتربية على الصبر ، فالصائم يجوع وأمامه شهي الغذاء ، ويعطش وبين يديه بارد الماء ، ويعف وبجانبه زوجته ، لا رقيب عليه في ذلك إلا ربه ، ولا سلطان إلا ضميره ، ولا يسنده إلا إرادته القوية الواعية ، يتكرر ذلك نحو خمس عشرة ساعة أو أكثر في كل يوم ، وتسعة وعشرين يوماً أو ثلاثين في كل عام . فأي مدرسة تقوم بتربية الإرادة الإنسانية وتعليم الصبر الجميل ، كمدرسة الصيام التي يفتحها الإسلام إجبارياً للمسلمين في رمضان ، وتطوعاً في غير رمضان ؟!

---

١ . سورة البقرة ، آية ١٥٣ . ٢ . سورة البقرة ، الآيتان ٤٥ ، ٤٦ .
٣ .انظر العبادات في الإسلام، القرضاوي،ص٢١٩،والحديث أخرجه أحمد في مسنده،عن حذيفة،رقم ٢٣١٩٢،١٦/ ٥٨٤،وقال المحقق:إسناده صحيح.
٤ . نص الحديث : لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب ...، متفق عليه ،عن أبي هريرة ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب فضل الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها ، رقم٣٨٢ ، ص ١١٥ .
٥ . متفق عليه ، عن ابن عمر ، انظر اللؤلؤ والمرجان ، كتاب المساجد ، باب فضل الجماعة ، رقم ٣٨١ ، ص ١١٥ .
٦ . انظر العبادات في الإسلام ، القرضاوي ، ص ٢٢٢ . ٧ . سورة البقرة ، آية ١٨٣
٨ . أخرجه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وضعفه الشيخ الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير ، رقم ٧٩٤٤ ، ص ٧٩٥ .

ولأن رمضان يعلم الصبر نسبه الرسول ﷺ إليه فقال : (صوم شهر الصبر ، وثلاثة أيام من كل شهر ، يذهبن وحر الصدر) [١] .

ومن حكم الصوم أنه يعرف المرء بمقدار نعم الله عليه ؛ فالإنسان إذا تكررت عليه النعم ، قل شعوره بها ، فالنعم لا تعرف إلا بفقدانها . فالحلو لا تعرف قيمته إلا إذا ذاقت المر . والنهار لا تعرف قيمته إلا إذا جن عليك الليل ، وبضدها تتميز الأشياء .

ففي الصوم معرفة لقيمة الطعام والشراب والشبع والري ، ولا يعرف ذلك إلا إذا ذاق الجسم حرارة العطش ، ومرارة الجوع .

ومن أسرار الصيام الاجتماعية أنه تذكير عملي بجوع الجائعين ، وبؤس البائسين ، تذكير بغير خطبة بليغة ولا لسان فصيح ، تذكير يسمعه الصائم من صوت المعدة ، ونداء الأمعاء [٢] .

أهداف الزكاة وآثارها التربوية :

أ . أهداف الزكاة [٣] :

للزكاة هدفان هما الطهارة والنماء :

فهي طهارة لنفس الغني من الشح ، قال تعالى : **وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ، وهي في الجانب الآخر طهارة لنفس الفقر من الحسد ، ثم هي طهارة للمال ، فقد روي عن النبي ﷺ : (إذا أديت زكاة مالك فقد أذهبت عنك شره) [٤] .

ثم هي – بعد معنى الطهارة – نماء وزيادة . نماء لشخصية الغني وكيانه المعنوي ، فالإنسان الذي يسدي الخير ، ويصنع المعروف ، يشعر بامتداد في نفسه ، وانشراح واتساع في صدره ، وانتصار على ضعفه وهواه وشيطان شحه ، والزكاة أيضاً نماء لشخصية الفقير ، حيث يحس أنه ليس ضائعاً في المجتمع ، ولا متروكاً لضعفه وفقره ؛ لأن مجتمعه يعمل على إقالة عثرته ، ويحمل عنه أثقاله ، والزكاة بعد ذلك نماء للمال وبركة فيه ، وهو ما تشير إليه آيات القرآن : ﴿ **وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ [٥] ، ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [٦] ، ﴿ **وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** ﴾ [٧]، ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ** ﴾ [٨] ، ويقول الرسول ﷺ : (ما نقص مال عبد من صدقة) [٩] .

ثم إنها بعد ذلك وسيلة من وسائل الضمان الاجتماعي الذي جاء به الإسلام ، كفاية للعاجزين والمحرومين .

---

١ ـ أخرجه أحمد في مسنده عن عبد الله بن الشخير عن الأعرابي ، رقم ٢٢٩٦٥ ، ١٦ / ٥١٥ ، وقال المحقق : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات رجال الشيخين . وحَرَ الصدر : وساوس الصدر وبلابله ، وقيل : الحقد والغيظ ، وقيل : العداوة . انظر لسان العرب ، ٥ / ٢٨١ .

٢ . انظر العبادات في الإسلام ، القرضاوي ، ص ٢٧٧ . ٣ . انظر المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

٤ . أخرجه الحاكم في المستدرك ، وقال صحيح على شرط مسلم ، ١٤٣٩ ، ١ / ٥٤٧ ، وفي الترغيب والترهيب للمنذري عن جابر بلفظ : من أدى زكاة ماله فقد ذهب عنه شره ، قال الألباني : حسن لغيره ، صحيح الترغيب والترهيب ، رقم ٧٤٣ ، ١ / ١٨٢ .

٥ . سورة سبأ ، آية ٣٩ . ٦ . سورة البقرة ، آية ٢٦٨ .

٧ . سورة الروم ، آية ٣٩ . ٨ . سورة البقرة ، آية ٢٧٦ .

٩ . أخرجه الترمذي في سننه عن أبي كبشة الأنماري ، كتاب الزهد ، ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر ، رقم ٢٣٢٥ ، ٤ / ٢٩٤ ، وقال : حديث حسن صحيح ، وقال الألباني : صحيح ، ونصه : (أنه سمع رسول يقول : ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه ، قال ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه فقر أو كلمة نحوها) .

ب . آثار الزكاة التربوية [١] :

فريضة الزكاة ليست مجرد أمر لحل مشكلة الفقر، ولكنها منهاج كامل تربوي ، وعلاج عملي أصيل لضعف النفس وتطيرها من داء الشح والأثرة وعبادة المال ، وقضاء على العداوة والحسد والإحساس بالمذلة والحرمان في المجتمع .

ولا يقضي القرآن على هذه الأدواء بمجرد التشريع والأمر بدفع الزكاة كضريبة تحصلها الدولة ؛ ولكنه يتخذ خطوات تربوية حتى ينتهي بالنفس إلى البذل رغبة وطواعية وحباً وتطهراً . فيبدأ بالمعرفة وتقدير نظرية المال حتى يفهم المالك حقيقة وضعه من ماله .

فالله هو خالق الكون ومالكه ، والمال ماله ، ولا يملك صاحبه منه إلا حق الانتفاع به ، فهو عنده وديعة ينفق منه في حدود أوامر الله ، قال تعالى : ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [٢] .

وهو في يد صاحبه وظيفة اجتماعية وابتلاء وامتحان : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً ﴾ [٣] .

وليس الإيمان حركة ظاهرية وتولية للوجه قبل المشرق والمغرب ؛ ولكنه إرادة قوية واعية متحررة ، ونفس سمحة كريمة تسمو على الشهوات والأهواء ، وقلب سليم يعنو لإرادة الله ، وفي النفس وتغلبها على حبها للمال وبذله دليل على الصدق والتقوى ، وذلك ما توجه إليه الآية الكريمة : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [٤] .

وتربية على الصلة بالله والتعامل المباشر معه ، وتقوية للنفس على التغلب على حبها للمال وضنها به ؛ قرر القرآن أن الله هو الذي يأخذ الصدقات : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [٥] .

وفي السماحة والسخاء وبذل المال سبيل إلى التسامي والقوة ، وانتصار على داء الشح ، وتحرر من العبودية للمال ، وإحساس بمغفرة الله ورضوانه ، وشعور بالقيام بأداء الواجب وطاعة الله والمساهمة في تقديم الخير للمجتمع ، وإسعاد لذوي الضر والحاجة ، ومن ثم اعتبر القرآن بذل المال تطهيراً وتزكية للنفس : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٦] .

---

١ . انظر منهج القرآن في التربية ، محمد شديد ، ص ١٧٥ وما بعدها .

٢ . سورة الحديد ، آية ٧ .
٣ . سورة الفجر ، الآيات ١٥ – ٢٠ .
٤ . سورة البقرة ، آية ١٧٧ .
٥ . سورة التوبة ، آية ١٠٤ .
٦ . سورة التوبة ، آية ١٠٣ .

واعتبر البخل هلاكاً للنفس : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

وإتماماً لصلاح النفس وضبطها وقوتها والسيطرة عليها نهى عن الإسراف ؛ فهو بدوره مظهر من مظاهر الضعف ، وهدف القرآن أن يصل بالنفس إلى القوة دون سرف أو تقتير : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٢) .

فقه الحج ، وآثار الحج في الحياة :

شعائر الحج تتطلب فقهاً لواقع الحج المكاني والزماني ، كما أن في رحلة الحج توسيع لأفق المسلم الثقافي ، ووصل له بالواقع الإسلامي والعالمي من حوله .

من أسرار المناسك :

فما الإحرام في حقيقته ، وهو أول المناسك – إلا التجرد من شهوات النفس والهوى ، وحسبها عن كل ما سوى الله ، وعلى التفكير في جلاله . وما التلبية إلا شهادة على النفس بهذا التجرد ، وبالتزام الطاعة والامتثال ، وما الطواف بعد التجرد إلا دوران القلب حول قدسية الله ، صنع المحب الهائم مع المحبوب المنعم ، الذي ترى نعمه ، ولا تدرك ذاته .

وما السعي بعد هذا الطواف إلا التردد بين علمي الرحمة التماساً للمغفرة والرضوان .

وما الوقوف بعد السعي إلا بذل المهج في الضراعة بقلوب مملؤة بالخشية ، وأيد مرفوعة بالرجاء ، وألسنة مشغولة بالدعاء ، وآمال صادقة في أرحم الراحمين ..

وما الرمي بعد هذه الخطوات التي تشرق بها على القلوب أنوار ربها ، إلا رمز مقت واحتقار لعوامل الشر ، ونزعات النفس ، وإلا رمز مادي لصدق العزيمة في طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات .

وما الذبح – وهو في الخاتمة في درج الترقي إلى مكانة الطهر والصفاء – إلا إراقة دم الرذيلة بيد اشتد ساعدها في بناء الفضيلة ، ورمز للتضحية والفداء على مشهد من جند الله الأطهار الأبرار (٣) .

آثار الحج في النفس والحياة (٤) :

شحنة روحية وعاطفية ، فالحج شحنة روحية كبيرة ، يتزود بها المسلم ، فتملأ جوانحه خشية وتقى لله ، وعزماً على طاعته ، وندماً على معصيته ، وتغذي فيه عاطفة الحب لله ولرسول الله ، ولمن عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، وتوقظ مشاعر فيه مشاعر الأخوة لأبناء دينه في كل مكان ؛ وتوقد في صدره شعلة الحماسة لدينه ، والغيرة على حرماته .

---

١ . سورة البقرة ، آية ١٩٥ .
٢ . سورة الفرقان ، آية ٦٧ .

٣ . الإسلام عقيدة وشريعة ، محمود شلتوت ، ص ١٢٨ .
٤ . انظر العبادات في الإسلام ، د / يوسف القرضاوي ، ص ٢٨٦ وما بعدها .

منافع تجارية ، فالحج من الجانب المادي فرصة متاحة لتبادل المنافع التجارية على نطاق واسع بين المسلمين ، قال تعالى : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾ (١)

وروى البخاري عن ابن عباس قال : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية . فتأثموا – أي تحرجوا – أن يتجروا في الموسم – أي في موسم الحج – فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك . فنزلت الآية : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (٢) .

قال صاحب المنار في تفسير الآية : (كان بعض المشركين ، وبعض المسلمين يتأثمون في أيام الحج من كل عمل حتى كانوا يقفلون حوانيتهم ، فعلمهم الله تعالى أن الكسب طلب فضل من الله لا جناح فيه مع الإخلاص ، وقوله " من ربكم " يشعر بأن ابتغاء الرزق مع ملاحظة أنه فضل من الله تعالى نوع من أنواع العبادة . وروي أن عمر قال لسائل في هذا المقام : وهل كنا نعيش إلا على التجارة ؟) (٣) .

وقال ابن جرير الطبري – رحمه الله – : إن معنى" ابتغاء الفضل من الله"، التماس رزق الله بالتجارة، وأن هذه الآية نزلت في قوم كانوا لا يرون أن يتجروا إذا أحرموا يلتمسون البر بذلك، فأعلمهم جل ثناؤه أن لا بر في ذلك، وأن لهم التماس فضله بالبيع والشراء (٤) .

المساواة والوحدة والسلام .

وهنا في الحج نرى معنى المساواة في أجلى صورة وأتمها. فالجميع قد اطرحوا الملابس والأزياء المزخرفة التي تختلف باختلاف الأقطار ، واختلاف الطبقات ، واختلاف القدرات ، واختلاف الأذواق ، ولبسوا جميعاً ذلك اللباس البسيط – الذي هو أشبه ما يكون بأكفان الموتى – يلبسه الملك والأمير ، كما يلبسه المسكين والفقير ، وإنهم ليطوفون بالبيت فلا تفرق بين من يملك القناطير المقنطرة ، ومن لا يملك قوت يومه ، ويقفون في عرفات ألوفاً ألوفاً ، فلا تحس بفقر فقير ، ولا غنى غني ، ولا تحس حين تراهم في ثيابهم البيض وفي موقفهم المزدحم العظيم إلا أنهم أشبه بالناس في ساحة العرض الأكبر ، يوم يخرجون من الأجداث إلى ربهم ينسلون .

وفي الحج نرى معنى الوحدة جلياً كالشمس : وحدة في المشاعر ، ووحدة في الشعائر ، ووحدة في الهدف ، ووحدة في العمل ، ووحدة في القول . لا إقليمية ولا عنصرية ، ولا عصبية للون أو جنس أو طبقة ، إنما هم جميعاً مسلمون ، برب واحد يؤمنون ، وببيت واحد يطوفون ، ولكتاب واحد يقرأون ، ولرسول واحد يتبعون ، ولأعمال واحدة يؤدون . فأي وحدة أعمق من هذه وأبعد غوراً ؟

والحج طريقة فذة لتدريب المسلم على السلام ،وإشرابه روح السلام.فهو رحلة سلام إلى أرض سلام ، في زمن سلام أرض الحج هي البلد الحرام والبيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ . والذي قال فيه ابن عباس : لو وجدت قاتل أبي لم أعرض له (٥) .

---

١ . سورة الحج ، آية ٢٨ .
٢ . أخرجه البخاري ، كتاب البيوع ، باب الأسواق التي كانت في الجاهلية فتبايع بها الناس في الإسلام ، رقم ٢٠٩٨ ، ٤ / ٣٩٣ .
٣ . تفسير المنار ، محمد رشيد رضا، ٢ / ١٨٧، وتفسير ابن كثير ، ١ / ٤٨٥ . ٤ . جامع البيان في تأويل القرآن ، الطبري ، ٢ / ٢٨٢ .
٥ . المصدر السابق ، ٤ / ١٢ ، والآية رقم ٩٧ من سورة آل عمران .

إنها منطقة أمان فريد من نوعه ، شمل الطير في الجو ، والصيد في البر ، والنبات في الأرض ، فهذه المنطقة لا يصاد صيدها ولا يروع طيرها ولا حيوانها ، ولا يقطع شجرها ولا حشائشها !!

ومعظم أعمال الحج يقع في شهرين (ذي القعدة وذي الحجة) من الأشهر الحرم ، التي جعلها الله هدنة إجبارية تغمد فيها السيوف ، وتحقن فيها الدماء ، ويوقف القتال : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ (١) .

الحج مؤتمر عالمي :

الحج يتيح للمسلم أن يشهد أعظم مؤتمر سنوي إسلامي ، مؤتمر لم يدع إليه ملك أو رئيس أو حكومة أو هيئة . بل دعا إليه العلي الكبير الذي فرض إقامته كل عام على المسلمين .

فهناك يجد المسلم إخواناً له من قارات الدنيا الخمس ، اختلفت أقاليمهم ، واختلفت ألوانهم ، واختلفت لغاتهم ، وجمعتهم رابطة الإيمان والإسلام ، ينشدون نشيداً واحداً : " لبيك اللهم لبيك "

في هذا المؤتمر . يلتقي رجال العلم ، ورجال الإصلاح ، ورجال السياسة ، فما أجدرهم – وقد التقوا على هدف واحد – أن يتعارفوا ويتفاهموا ويتعاونوا على تدبير أفضل الخطط ، وأحسن الوسائل ، ليبلغوا الأهداف ويحققوا الآمال .

ولقد نبه الرسول الكريم ﷺ إلى قيمة هذا المؤتمر حين اتخذ منه منبراً لإذاعة أهم القرارات والبلاغات التي تتصل بالسياسة العامة للمسلمين . ففي أول سنة حج فيها المسلمون تحت إمارة أبي بكر ، بعث النبي وراءه علياً ليعلن على الناس إلغاء المعاهدات التي كانت بينه وبين المشركين الناكثين . وأن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان (٢) .

وفي السنة التالية التي حج فيها الرسول ﷺ بنفسه أعلن فيها على الجمهور خطبة " البلاغ " أو " الوداع " التي لخص فيها أهم مبادئ الإسلام ودستور الإسلام (٣) .

٢ . شمول العبادة لكل شعب الدين ، ومناحي الحياة .

مفهوم العبادة في العرف الإسلامي يتجاوز العبادات المحضة ليشمل واقع الإنسان المسلم الذي يحياه بمعاملاته وعاداته وميادينه الأخرى ، والذي يتعين عليه الإلمام به ، فهماً وتفاعلاً وتصحيحاً ، وذلك إذا كانت الغاية هي الله ، والنية خالصة لوجه الله ، وبهذا تنقلب العادات والممارسات والحركات إلى عبادات يثاب المرء عليها .

[وهكذا نجد أن العبادة – كما شرحها ابن تيمية سابقاً – أفقاً رحباً ودائرة واسعة **لكل شعب الدين وجزئياته** ، فهي تشمل الفرائض والأركان الشعائرية من الصلاة والصيام والزكاة والحج .

وهي تشمل ما زاد على الفرائض من ألوان التعبد التطوعي من ذكر وتلاوة ودعاء واستغفار ، وتسبيح وتهليل وتكبير وتحميد .

١ . سورة المائدة ، آية ٩٧ .

٢ . نص الحديث:متفق عليه،عن أبي هريرة ،كتاب الحج ،باب لا يحج بالبيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان،اللؤلؤ والمرجان،رقم٨٥٤ ،ص٢٥٩ .

٣ . نص الحديث عند مسلم ، عن جابر بن عبد الله ، كتاب الحج ، باب حجة النبي ﷺ ، رقم ١٢١٨ ، ٢ / ٨٨٧ .

وهي تشمل حسن المعاملة والوفاء بحقوق العباد ، كبر الوالدين ، وصلة الأرحام والإحسان لليتيم والمسكين وابن السبيل . والرحمة بالضعفاء ، والرفق بالحيوان .

وهي تشمل الأخلاق والفضائل الإنسانية كلها ، من صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق .

كما تشمل ما يسمى (الأخلاق الربانية) من حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه .

وأخيراً تشمل العبادة الفريضتين الكبيرتين اللتين هما سياج ذلك كله وملاكه ، وهما : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجهاد الكفار والمنافقين في سبيل الله .

بل تشمل العبادة أمراً له أهميته وخطره في الحياة المادية للناس . ذكره ابن تيمية في موضع آخر من رسالته – العبودية – ، وهو الأخذ بالأسباب ، ومراعاة السنن التي أقام الله عليها الكون ، قال : (فكل ما أمر الله به عباده من الأسباب هو عبادة) [١] .

والعبادة أيضاً تشمل **كل نواحي الحياة** ، فالإسلام جاء ليرسم للإنسان منهج حياته الظاهرة والباطنة ، ويحدد سلوكه وعلاقاته وفقاً لما يهدي إليه هذا المنهج الإلهي ، ولذلك فإن عبادة الله تسع الحياة كلها ، وتنتظم أمورها قاطبة : من أدب الأكل والشرب ، وقضاء الحاجة ، إلى بناء الدولة ، وسياسة الحكم ، وسياسة المال ، وشئون المعاملات والعقوبات ، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب .

إن عبادة الله ليست محصورة – إذن – في الصلاة والصيام والحج ، وما يلحق بها من التلاوة والذكر والدعاء والاستغفار ، كما يتبادر إلى فهم كثير من المسلمين إذا دعوا إلى عبادة الله .

إن هذه الشعائر العظيمة والأركان الأساسية في بناء الإسلام على منزلتها وأهميتها ، إنما هي جزء من العبادة لله ، وليست هي كل العبادة التي يريدها الله من عباده .

والحق أن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان . وجعلها غايته في الحياة . ومهمته في الأرض . دائرة رحبة واسعة . إنها تشمل شئون الإنسان كلها وتستوعب حياته جميعاً ، فهي بالإضافة إلى العبادات المحضة تمتد إلى الأخلاق والآداب والنظم والقوانين والعادات والتقاليد ... الخ] [٢] .

---

١ . رسالة العبودية ، ابن تيمية ، ص ٧٠ .

٢ . العبادات في الإسلام ، القرضاوي ، ص ٤٩ وما بعدها ، بتصرف .

٣ . فقه نظام الزكاة الإسلامي .

هناك مباحث كثيرة في نظام الزكاة الإسلامي ترتبط بفقه الواقع الاقتصادي ، ودراسة العلوم المالية والتجارية ، نذكر بعضاً منها على سبيل المثال : زكاة النقود الورقية في عصرنا وما يتبعها من تحديد النصاب وغيره ، زكاة عروض التجارة وكيفية تقويم رأس المال والإيرادات والأصول والنفقات والديون خصوصاً في الشركات الكبرى ، نصاب الحبوب والثمار بالمقاييس العصرية ، زكاة العمارات والمصانع والمستغلات ، زكاة الأسهم والسندات ، الزكاة والضرائب ، تقويم السلع والخدمات ، تنظيم الجهاز المالي والإداري للزكاة – العاملين عليها – ، طرق توزيع الزكاة على أصنافها والمستحقين لها ، الزكاة والضمان الاجتماعي ، التأمين ومشروعيته ، زكاة الرواتب والمهن الحرة ، النظم المصرفية المعاصرة والبنوك الإسلامية الموازية لها .

هذه مباحث وموضوعات لها صلة وثيقة بالواقع الاقتصادي المتشابك الذي يُدوّر عجلة الحياة من حولنا ، ولا يمكن وصلها بنظام الزكاة وبنظام الإسلام الاقتصادي إلا بفهم قواعد العلوم الشارحة لها ، والاحتكاك بالبيئة التي تعمل فيها ؛ لأنه كما قال الفقهاء وأهل المنطق : الحكم على الشيء فرع عن تصوره .

وهو السبب الذي جعل الشيخ الدكتور القرضاوي – في مقدمة كتابه القيم فقه الزكاة – ينبه إلى أهمية كتب الواقع الاقتصادي ، قال حفظه الله بعد أن ذكر كتب المعاملات الفقهية في مجال النص : (أن من بركات هذا البحث أنه فتح لي نافذة على الدراسات المالية والاقتصادية التي كنت – بمقتضى تخصصي – في عزلة عنها ، فأطللت من هذه النافذة على النظام الاقتصادي في الإسلام ، فاتضحت لي معالمه ، ولاحت أمام عيني مبادئه ودعائمه) [١] .

٤ . المسجد ورسالته في واقع الناس .

يجب أن يكون للمسجد دور ريادي وهام في حياة المسلم ، فهو مؤسسة للتوجيه والإعلام – المنبر وأذان الصلاة – والإصلاح ، ومدرسة للتعليم والتربية ، ودار للرعاية الاجتماعية والخدمية ، ومنتدى للشورى والحوار ، ومن ثَمّ ينطلق منه العمل الجماعي المنظم للأعمال والأنشطة الاجتماعية والسياسية والفكرية ، والندوات والمحاضرات التعليمية .

فمن الأحاديث التي وردت في فضل الجماعات والمساجد :

كقول رب العزة لرسوله – ﷺ – : (يا محمد قلت لبيك رب قال فيم يختصم الملأ الأعلى قلت في الكفارات قال ما هن قلت مشي الأقدام إلى الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات وإسباغ الوضوء حين الكريهات ...) [٢] .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد) [٣] .

ويقول ﷺ : (من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة) [٤] .

---

١ . فقه الزكاة ، القرضاوي ، ١ / ٣٣ .

٢ . أخرجه الترمذي في سننه ،عن معاذ بن جبل ، كتاب تفسير القرآن ، سورة ص ، رقم ٣٢٣٥ ، ٥ / ٢٠٨ ، وقال الترمذي :حسن صحيح .

٣ . أخرجه أحمد في مسنده ، عن معاذ بن جبل ، رقم ٢١٩٢٨ ، ١٦ / ١٧٢ ، وقال المحقق : إسناده صحيح .
٤ . أخرجه البخاري في صحيحه ، عن عثمان بن عفان ، فتح البارئ ، كتاب الصلاة ، باب من بنى لله مسجدا ، رقم ٤٥٠ ، ١ / ٦٧٨ .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم في المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسترني بردائه أنظر إلى لعبهم) [١] .

لقد فقه علماء الإسلام هذا الشمول لرسالة المسجد في ضوء الحديث السابق ، حتى قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله : (قال المهلب : المسجد موضوع لأمر جماعة المسلمين ، فما كان من الأعمال يجمع منفعة الدين وأهله جاز فيه) [٢] .

[وما كان المسجد في فجر الإسلام إلا جامعة شعبية للتثقيف والتهذيب ، وبرلماناً محلياً للتشاور والتفاهم ، ومجمعاً للتعارف والتحاب ، ومعهداً للتربية العملية الأساسية .
فالمسجد جامعة شعبية ، تسع الجميع في رحابها ، في الليل والنهار ، والصيف والشتاء ، ولا ترد طالباً شيخاً كان أم صبياً ، ولا تشترط رسوماً ولا تأميناً ، ولا تضع قيوداً ولا عراقيل ؟ .
أي جامعة كهذه تعلم قواعد العقائد ، وفرائض العبادات ، ومكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب ، وطرائق المعاملات ، وتعقد فيها للعلم حلقات تغشاها الرحمة ، وتنزل عليها السكينة ، وتحفها الملائكة ؟ .
ولم تكن حلقات المساجد مقصورة على العلم الديني المحض ، بل شملت كل ما وصل إليه العقل الإسلامي من معارف أدبية وإنسانية . فمنذ صدر الإسلام نرى حلقة كحلقة حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس تتسع لعلوم ومعارف مختلفة يفرد لكل منها يوماً. ولا غرو أن نشأ العلم في الإسلام موصولاً بالعبادة ، وأن ترعرعت " الجامعات " العريقة ، تحت سقوف " الجوامع " . ومن منا يجهل المكانة العلمية لجامع الأزهر في مصر ، وجامع القرويين في المغرب ، وجامع الزيتونة في تونس ؟ وما قدمته هذه الجوامع أو الجامعات من خدمة للعلم والثقافة قروناً طويلة ؟!

والمسجد برلمان دائم ومنتدى للشورى ، ونوابه هم ﴿ **التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ** ﴾ [٣] .
برلمان يعقد في كل يوم خمس جلسات ، ولا يغلق بابه في عطلة أو إجازة . يعرض فيه الحاكم سياسته ، ويحدد منهجه ويناقشه الشعب ويستجوبه بلا حجر ولا خوف . وهل سمعنا خطبة سياسية جامعة موجزة لرئيس دولة كالخطبة التي ألقاها أبوبكر يوم ولي الخلافة فقال : (أما بعد أيها الناس فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف منكم قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق إن شاء الله لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا يشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله) [٤] .

---

١ . أخرجه البخاري في صحيحه ، عن عروة بن الزبير عن عائشة ، كتاب الصلاة ، باب أصحاب الحراب في المسجد ، رقم ٤٥٤ ، ١ / ٦٨٤ .
٢ . فتح البارئ ، العسقلاني ، ١ / ٦٨٥ .
٣ . سورة التوبة ، آية ١١٢ .

٤ . البداية والنهاية ، ابن كثير ٦ / ٣٢٠ ، وقال ابن كثير : هذا إسناد صحيح .

المسجد مؤتمر :

فالمسجد مؤتمر يجمع خلاصة الحي في كل صلاة ، وصفوة البلد في كل جمعة ، ولقد عرف أسلافنا قيمة المسجد – بوصفه مؤتمراً حافلاً – فكانوا يعقدون فيه عقود زواجهم امتثالاً للحديث الشريف : (أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد ، واضربوا عليه بالدف) (١) .

المسجد معهد للتربية العملية :

هو حقل تجرب في ساحته تعاليم الدين النظرية ، وتوضع مبادئه الإنسانية موضع التنفيذ .

فقد كان من مزايا هذا الدين الخالد أنه لم يجعل مبادئه فكرة مجردة في الرأس ، أو كلمة تجري على اللسان ، ولكنه ربطها بحياة المسلم ونظامه اليومي ربطاً لا ينفك عنه .

فالحرية والإخاء والمساواة التي جاء بها الإسلام ، تراها في المسجد حقائق عملية ، أو أعمالاً حقيقية ، تعلن عن نفسها بلا صوت ولا حرف ولا ضجيج .

أما الحرية فأي حرية أعز من حرية المصلي في المسجد وهو طليق من كل العبودية إلا لله ، له وحده يركع ويسجد ، ولوجهه وحده يذل ويخشع ، أما البشر مهما تعاظموا فهم عبيد مثله لا سلطان لهم عليه : ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً** ﴾ (٢) .

تلك هي حرية الضمير الإنساني أولى الحريات وأعمقها .

وأما حرية الرأي والنقد فحسبك أن الأمام إذا أخطأ في قول أو فعل من أقوال الصلاة وأفعالها ، كان على من وراءه أن يصلحوا له الخطأ ، وأن يردوه إلى الصواب ، يستوي في ذلك الشيخ والشاب والغلام ، والرجل والمرأة ، فإذا هذا يصحح قراءته ، وذلك يقول له سبحان الله ، وتلك تصفق بيدها .. حتى يعود إلى الحق والسداد .

فإذا اعتلى الخطيب منبر المسجد فليس " دكتاتوراً " يفرض على الناس ما يرى من آراء ، ولكنهم شركاؤه في المسؤولية ، عليهم أن ينبهوه إذا غفل ، وأن يذكروه إذا نسي ، ويسددوه إذا انحرف عن الصراط المستقيم ، ولوكان هو خليفة المسلمين .

أراد أمير المؤمنين عمر أن يضع حداً أعلى للمهور ، فأعلن ذلك في المسجد فعارضته امرأة .. وقالت : كيف هذا وقد قال الله : ﴿ **وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً** ﴾ (٣) فما كان من الخليفة إلا أن رجع عن رأيه وقال في صراحة : " أصابت امرأة وأخطأ عمر " ! (٤) .

وأما الإخاء فحسبك أن المسجد يضم أهل الحي في كل يوم خمس مرات ، تتلاصق فيها الأبدان ، وتتعارف فيها الوجوه ، وتتصافح فيها الأيدي ، وتتناجى فيها الألسن ، وتتآلف فيها القلوب ، ويلتقون على وحدة الغاية والوسيلة . وأي وحدة أبلغ وأعمق من وحدة المصلين في الجماعة يصلون خلف رجل واحد هو " الإمام " ويناجون رباً واحداً هو " الله " ويتلون كتاباً واحداً هو " القرآن " ويتجهون إلى قبلة واحدة هي " الكعبة " البيت الحرام ، ويؤدون أعمالاً واحدة من قيام وقعود ، وركوع وسجود .

---

١ . قال في كشف الخفاء : رواه الترمذي عن عائشة وضعفه لكن له شواهد فيكون حسنا لغيره بل صحيحا ، رقم ٤٢٢ ، ١ / ١٤٥ .

٢ . سورة الجن ، آية ١٨ . ٣ . سورة النساء ، آية ٢٠ .
٤ . مناقب عمر بن الخطاب ، ابن الجوزي ، ص ١٤٩ .

وحدة نفذت إلى اللباب ولم تكتف بالقشور ، وحدة في النظرة والفكرة ، وحدة في الغاية والوجهة ، وحدة في القول والعمل ، وحدة في المخبر والمظهر ، وحدة يشعرون فيها بروح الآية الكريمة : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (١) .

وأي صورة أروع من المسجد النبوي في المدينة ، وقد ضم في حناياه أجناساً شتى من غير العرب ، من رومي كصهيب ، وفارسي كسلمان ، وحبشي كبلال ، كما ضم قبائل متباينة من العرب ، من قحطانيين كالأنصار ، وعدنانيين كالمهاجرين ، وهذه القبائل بطون طالما فرقت بينها العدواة والبغضاء في الجاهلية كالأوس والخزرج .

وأما المساواة فأي مساواة أوضح من تلك التي نراها في الصفوف المتراصة في المسجد ؟ الأمير إلى جانب الخفير ، والغني بجوار المسكين ؛ والسيد ملاصق للخادم ، والعالم الفيلسوف وعن يمينه عامل ، وعن شماله فلاح ؟!

فليس للمسجد لائحة تخصص الصف الأول للوزراء ، والصف الثاني للنواب والثالث للمديرين أو موظفي الدرجة الأولى أو كبار الملاك .

وإنما الجميع سواسية كأسنان المشط الواحد ، فمن بكّر في الذهاب إلى المسجد احتل مكانته في مقدمة الصفوف أياً كانت منزلته وعمله في الناس] (٢) .

فقه الواقع اللازم للخطيب :

ينبغي أن تكثف الدورات التأهيلية للخطباء ، وأن يشتمل جزء منها على التبصر بالواقع الذي يحتك به الخطيب ، ويعيش فيه حتى تكون خطاباته وخطبه واقعية ، تعالج ما يعانيه الناس ويتلمسون حلوله (٣) .

(في عهد السلطان سليمان القانوني (٤) ، أعلن عن وظيفة إمام خالية ... أتدرون ماذا كانت الشروط المطلوبة في اختيار المرشح ؟

أن يجيد اللغة العربية والتركية والفارسية واللاتينية .

أن يكون دارساً وفاهماً للقرآن الكريم والإنجيل والتوراة .

أن يكون عالماً في الشريعة والفقه والسيرة النبوية وتاريخ الإسلام .

أن يكون عالماً بالرياضة والطبيعة.

أن يجيد ركوب الخيل والمبارزة بالسيف للجهاد .

أن يكون حسن المظهر .

أن يكون حسن الصوت .

قبل هذا وبعد : أن يكون قدوة حسنة وأسوة صالحة) (٥)

انظر رعاك الله إلى هذه الشروط التي قلّما تتوفر في عالم مجتهد فضلاً عن خطيب مسجد ، وقارنها بواقع أمتنا اليوم !!

---

١ . سورة الحجرات ، آية ١٠ . ٢ . انظر العبادات في الإسلام ، القرضاوي ، ص ٢٢٥ وما بعدها .
٣ . انظر المسجد ونشاطه الاجتماعي على مدار التاريخ ، عبد الله الوشلي ، ص ٣١٢ .

٤ . هو سليمان الأول ، سلطان عثماني (١٤٩٤ – ١٥٦٦م) ، خلف أباه سليم ، وبلغت في عهده الإمبراطورية العثمانية أوج سطوتها . واصل فتوح أبيه في البلقان ، وحاصر فينا وارتد عنها لزمهرير الشتاء ، وشن عدة حروب ضد فارس ، وأنفذ حملة بحرية إلى البحر الأحمر جعلته سيد السواحل العربية . كان حكمه بوجه عام معتدلاً عادلاً ، وكان ينفق بسخاء على رجال الفن والأدب . انظر الموسوعة العربية الميسرة ، ٣ / ١٣٦٧ .

٥ . انظر القدوة : منهاج ونماذج ، د / سعيد قابل ، ص ١٦٣ .

لهذا لابد للخطيب من إعداد مكثف لنفسه ، يشمل علوم الشرع ، وفقه الواقع الذي يمكن تحصيله من خلال مراعاة ما يلي :

ـ **أن يكون عميق الفهم** واسع الإطلاع محيطاً بالواقع والبيئة ، التي يعيش فيها إحاطة تامة بأحوالها وظروفها والتيارات والتحديات التي تتعرض لها .

ـ **أن يهتم بدراسة تاريخ الفكر الإسلامي** وتاريخ الفرق الإسلامية مع الاهتمام في هذه الدراسة ببيان وجه الصواب في مذهب كل فرقة عن طريق عرضه على الأصول العامة للدين الإسلامي .

ـ **دراسة موسعة لجغرافية المحيط** الإقليمي والإسلامي والعالمي .

ـ **أن يكون ملماً بقسط كبير من علوم الكون والحياة** ، وهو ما يعرف بالثقافة العلمية ، وتكنولوجيا العصر .

ـ **دراسة المذاهب السياسة المعاصرة** والتعرف على محاور ارتكازها الفكرية والسلوكية ومناقشة ما فيها من خلل واضطراب .

ـ **معرفة واقع الأعداء** ، وغير المسلمين في العالم الإسلامي والعالم أجمع .

ـ **دراسة أحوال الأقليات الإسلامية في العالم الغربي** ، وكيفية التواصل معها ، وربطها بواقع أمتها وقضاياها المصيرية .

ـ **أن يهتم بدراسة واقع الحركات والجماعات الإسلامية المعاصرة** ، وكيفية الانخراط معها والوصول بها إلى عمل تعاوني مشترك .

إن المسجد المعاصر يستطيع أن يؤدي رسالته في الحياة المعاصرة ، ويسهم بنشاطه في مختلف مجالات الحياة بالإصلاح إذا توفرت له الإمكانيات المتوائمة مع متطلبات العصر ، والحياة المتناسبة مع الزمن وأحوال الناس ، وتوفر له القائمون المخلصون الأكفاء على أنشطته ، وأعطي الحرية التي لا يكبلها سلطان ظالم ولا طاغية مستبد ، واهتم بشئونه كما اهتم بما سواه من المؤسسات الحديثة [١] .

فقه الواقع في مجال السلوك :

ولنضرب أمثلة لذلك :

١ . **مخاطبة كل إنسان بما يناسبه شرعاً وعرفاً .**

الجانب الأول : مخاطبة الإنسان بمراعاة طبيعته البشرية ، فالإنسان قطعة من طين ، ونفخة من روح الله ، قال تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ [٢] .

لهذا راعى الخطاب القرآني الجمع بين الروحية والمادية من جهة ، ومخاطبة العقل والقلب أو المنطق والعواطف من جهة أخرى ، وذلك تماشياً مع شخصية الإنسان المتوازنة التي جبل عليها .

---

١ . انظر المسجد ونشاطه الاجتماعي على مدار التاريخ ، عبد الله الوشلي ، ص ٢٩٢ .

٢ . سورة ص ، الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

يقول صاحب الظلال : إن الإسلام يشرع لناس من البشر ، لا لجماعة من الملائكة ، ولا لأطياف موهمة في الرؤى المجنحة! ومن ثم لا ينسى – وهو يرفعهم إلى جو العبادة بتشريعاته وتوجيهاته – أنهم بشر ، وأنها عبادة من بشر . . بشر فيهم ميول ونزعات ، وفيهم نقص وضعف ، وفيهم ضرورات وانفعالات ، ولهم عواطف ومشاعر ، وإشراقات وكثافات . . والإسلام يلاحظها كلها؛ ويقودها جملة في طريق العبادة النظيف ، إلى مشرق النور الوضيء ، في غير ما تعسف ولا اصطناع . ويقيم نظامه كله على أساس أن هذا الإنسان إنسان! [١] .

الجانب الثاني : مراعاة الفروق النوعية بين المكلفين . فهناك الذكر والأنثى : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [٢] ولذلك جاء الخطاب القرآني مناسباً لكل نوع بما يتلاءم مع تركيبه العضوي والنفسي ، وبما يتماشى مع وظيفته التي خُلق من أجلها [٣] .

الجانب الثالث : مراعاة الظروف المحيطة بالإنسان أو الطارئة عليه ، فقد راعى الخطاب القرآني أن الإنسان تحيط به ظروف مختلفة ، وتتقلب عليه أحوال متباينة ، كالخوف والفقر والمرض والكسل ، والاضطرار والجوع ، والشهوة ، والغضب والملل . فراعي الإسلام كل ذلك بما يرفع الإصر ويزيل الحرج ، تخفيفاً على الإنسان ، ورحمة به ، يقول الله تعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [٤] ، ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [٥] ، ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً﴾ [٦] .

الجانب الرابع : مراعاة درجات المكلفين في الفهم والعمل ، وعلو الهمة . ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [٧] .

وحول واقعية الخطاب القرآني في النظرة إلى المكلف ، والتعامل مع الواقع الإنساني ، يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله : (إن الإنسان في التصور الإسلامي هو هذا الإنسان الذي نعهده ، هذا الإنسان بقوته وضعفه ، بنوازعه وأشواقه ، بلحمه ودمه وأعصابه ، بجسمه وعقله وروحه ، إنه ليس الإنسان الذي يصوره الخيال الجامح إنه الإنسان الذي خلقه الله ليستخلفه في هذه الأرض .

إنه الإنسان الواقعي .. ومن ثم فإن المنهج الذي يرسمه له الإسلام منهج واقعي كذلك ، تنطبق حدوده على حدود طاقات الإنسان وتكوينه .

والمنهج الإسلامي للحياة – على كل رفعته ونظافته ومثاليته – هو في الوقت ذاته منهج لهذا الإنسان – في حدود طاقاته الواقعية – ونظام لحياة هذا الكائن البشري الذي يعيش على هذه الأرض يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، يتزوج ويتناسل ، ويحب ويكره ، ويرجو ويخاف ، ويزاول كل خصائص الإنسان الواقعي كما خلقه الله .

---

١ . في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١ / ٢٣٨ .
٢ . سورة آل عمران ، آية ٣٦ .
٣ . انظر منهج القرآن في إصلاح المجتمع ، محمد السيد يوسف ، ص ٤٠٥ .
٤ . سورة الفتح ، آية ١٧ .
٥ . سورة الأنعام ، آية ١١٩ .

٦ . انظر المصدر السابق ، والآية رقم ١٠١ من سورة النساء .
٧ . انظر المصدر السابق ، والآية رقم ٣٢ من سورة فاطر .

والمنهج الإسلامي يأخذ في اعتباره فطرة هذا الإنسان ، وطاقاته واستعداداته وفضائله ورذائله ، وقوته وضعفه ، فلا يسوء ظنه بهذا الكائن ولا يحتقر دوره في الأرض ، ولا يهدر قيمته ، كما أنه لا يرفع هذا الإنسان إلى مقام الإلوهية ، ولا يخلع عليه شيئاً من خصائصها .
كذلك لا يتصوره ملكاً نورانياً شفافاً لا يتلبس بمقتضيات التكوين المادي ، ومن ثم لا يستقذر دوافع فطرته ومقتضيات هذا التكوين الفطري .
ومع اعتبار المنهج الإسلامي لإنسانية الإنسان من جميع الوجوه فهو وحده الذي يملك أن يصل به إلى أرفع مستوى ، وأكمل وضع يبلغ إليه الإنسان في أي زمان وفي أي مكان) [١] .

٢ . الوفاء بحاجات الناس ، والرأفة بهم .

وهو سلوك متميز يحث عليه القرآن لمن يسلك دروب الواقع ، ويتلمس فقهه وتصحيحه وتطويره في ظل منهج القرآن الواقعي ، وفي ظل سنن الكون وقوانينه الواقعية .

إن القرآن كان ينزل بحسب حاجات الناس ومتطلباتهم ، أي بحسب واقعهم ، لذا نجد كثيراً من الآيات تبدأ بعبارات مثل : (**يَسْأَلُونَكَ**) أو (**يَسْتَفْتُونَكَ**) [٢] ، وهي إجابات عن أسئلة كان يطرحها الناس ، وكانت تشغلهم ، فينزل القرآن مجيباً ومصلحاً وموجهاً [٣] .

من ذلك قوله ﷻ : ﴿**يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**﴾ [٤] .

وسبب نزول هذه الآية : أن عمر بن الخطاب ومعاذ ابن جبل ونفراً من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبة للعقل مسلبة للما ل، فأنزل الله تعالى هذه الآية [٥] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ **وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً** ﴾ [٦] .

فقد أخرج البخاري أن عائشة رضي الله عنها قالت : هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها فأشركته في ماله حتى في العذق [٧] فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلا فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها فنزلت هذه الآية [٨] .

---

١ . خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، سيد قطب ، ص ١٨٢ .
٢ . ورد (يسألونك) في أربعة عشر موضعاً في القرآن الكريم ، وورد (يستفتونك) في موضعين فقط من سورة النساء .
٣ . فقه الواقع ، أحمد بوعود ، ص ٩٧ .
٤ . سورة البقرة ، آية ٢١٩ .
٥ . انظر أسباب النزول ، الواحدي ، ص ٦٤ .
٦ . سورة النساء ، آية ١٢٧ .

٧ . العَذْق : النخلة عند أهل الحجاز . انظر لسان العرب ، ابن المنظور ، ١٠ / ٢٣٨ ، والمعجم الوسيط ٢ / ٥٩٦ .
٨ . فتح البارئ مع صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب (ويستفتونك في النساء ...) ، رقم ٤٦٠٠ ، ٨ / ٣٢٨ .

والرسول ﷺ في توجيهاته كان يراعي حاجات الناس ومتطلباتهم ، وتأخذه الرأفة بأصحاب الحالات الخاصة وذوي الأعذار ، فقد قال الله عنه : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) ، وقال له :﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : هلكت يا رسول الله ، قال : وما أهلكك ؟ قال وقعت على امرأتي في رمضان ، قال : هل تجد ما تعتق رقبة ؟ قال : لا ، قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال : لا ، قال : فهل تجد ما تطعم ستين مسكيناً ؟ قال : لا ، قال : ثم جلس فأتي النبي صلى الله عليه وسلم بعرق فيه تمر فقال : تصدق بهذا ، قال : على أفقر منا ؟ فما بين لابتيها (٣) أهل بيت أحوج إليه منا ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابه ثم قال : اذهب فأطعمه أهلك (٤) .

٣ . الدراسة والفهم السليم لواجبات المجتمع .

من المعلوم أن سلوك الفرد في المجتمع عبارة عن أداء لسلسلة من الحقوق والواجبات ، وأن كل حق يقابله واجب ، بحيث يتدخلان ، أو يصيران وجهين لعملة واحدة ، فهناك الواجبات الخاصة في إطار الأسرة الضيق – الزوج والزوجة والآباء والأبناء – ، وهناك الحقوق العامة في دائرة المجتمع الواسعة .

أولاً . الحقوق الخاصة :

حقوق الزوجة على زوجها :

أ . حسن العشرة .

في ذلك يقول الله تعالى : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٥) ، (أي على ما أمر الله به من حسن المعاشرة. والخطاب للجميع ، إذ لكل أحد عشرة ، زوجا كان أو وليا ؛ ولكن المراد بهذا الأمر في الأغلب الأزواج ، وهو مثل قوله تعالى :﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ﴾ (٦) . وذلك توفية حقها من المهر والنفقة ، وألا يعبس في وجهها بغير ذنب ، وأن يكون منطلقا في القول لا فظا ولا غليظا ولا مظهرا ميلا إلى غيرها. والعشرة : المخالطة والممازجة .
وقال بعضهم : هو أن يتصنع لها كما تتصنع له. فقد أثر عن ابن عباس قال : إني أحب أن أتزين لامرأتي كما أحب أن تتزين المرأة لي. وهذا داخل فيما ذكرناه) (٧) .

وقال ﷺ في تأكيد هذا المعنى : (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي ...) (٨) .

---

١ . سورة التوبة ، آية ١٢٨ .
٢ . سورة الشعراء ، آية ٢١٥ .
٣ . لابتيها : هي مثنى لابة ، ولابتيها هما الحرتان ، والمدينة بين حرتين ، والحرة أو اللابة : الأرض ذات الحجارة السوداء . انظر صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ٢ / ٧٨٢ .
٤ . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الصيام ، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم ووجوب الكفارة ، رقم ١١١١ ، ٢ / ٧٨١ .
٥ . سورة النساء ، آية ١٩ . ٦ . سورة البقرة ، آية ٢٢٩ .

٧ . انظر الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٣ / ٩٠ .

٨ . أخرجه ابن حبان في صحيحه ، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ، عن عائشة رضي الله عنها ، كتاب النكاح ، باب معاشر الزوجين ، رقم ٤١٧٧ ، ٩ / ٤٨٤ ، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح .

ب . تعليمها ما تحتاجه من أمور الدين : العقائد والعبادات والمعاملات ، خصوصاً ما يتعلق بالجانب النسوي والأسري .

عن أبي سعيد الخدري : (قال النساء للنبي ﷺ : غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن ...) (١) .

ويؤخذ من هذا الحديث مشروعية تعليم النساء ، وحرص نساء الصحابة على التعلم ، وأن من واجب الزوج تجاه زوجته تعليمها أمور دينها ، وما هو ضرورة لها من علوم الدنيا .

ج . أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، قال تعالى : ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى**﴾ (٢) ، وقال عز وجل : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ (٣) ، وقال سبحانه : ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (٤) .

د . الاعتدال في الغيرة :

ومعنى الغيرة : أن تأخذ الإنسان الأنفة والحمية والغضب إذا شعر أن غيره يريد أن يشاركه في أهله ، ومن هم في حوزته أو في خصوصياته (٥) .

قال ﷺ : (إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه) (٦) .

والغيرة المحبوبة المطلوبة هنا هي التي يحكمها الدين وتدفع إليها الكرامة والحمية الإسلامية والفطرة السليمة ، أما الغيرة الناشئة عن الأوضاع الاجتماعية الفاسدة ، وعن التعليم والثقافات الماجنة ، وعن التيارات المجلوبة من معاطن الجريمة والانحلال والتخنث فإنها ذات مقاييس مختلفة وذات أوضاع مقلوبة (٧) .

هـ . الصداق والنفقة :

قال تعالى : ﴿**وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً**﴾ (٨) ، ﴿**وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً**﴾ (٩) ، ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾ (١٠) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرا للذي أنفقته على أهلك) (١١) .

---

١ . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب العلم ، باب هل يجعل للنساء على حده في العلم ، رقم ١٠١ ، ١ / ٢٤٧ .

٢ . سورة طه ، آية ١٣٢ .

٣ . سورة التحريم ، آية ٦ .

٤ . سورة التوبة ، آية ٧١ .

٥ . السلوك الاجتماعي في الإسلام ، حسن أيوب ، ص ٢٠٩ .

٦ . أخرجه مسلم في صحيحه ، عن أبي هريرة ، كتاب التوبة ، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش ، رقم ٢٧٦١ ، ٤ / ٢١١٤ .

٧ . السلوك الاجتماعي في الإسلام ، حسن أيوب ، ص ٢١٠ .

٨ . سورة النساء ، آية ٤ . ٩ . سورة النساء ، آية ٢٠ .

١٠ . سورة النساء ، آية ٣٤ .

١١ . أخرجه مسلم ، عن أبي هريرة ، كتاب الزكاة ، باب فضل النفقة على العيال والمملوك ، رقم ٩٩٥ ، ٢ / ٦٩٢ .

و . العدل في القسمة بين أكثر من زوجة :

فالرسول ﷺ كان يعدل بين نسائه في العطاء والبيتوتة ، وهو من باب العدل في الأمور المادية والمعيشية ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ويقول : (اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلومني فيما تملك ولا أملك) (١) .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ (٢) .

(يخبر تعالى: أن الأزواج لا يستطيعون وليس في قدرتهم العدل التام بين النساء ، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك. وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطاع، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل .

فالنفقة والكسوة والقسم ونحوها عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب والوطء ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للتزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها) (٣) .

ي . كف الأذى عنها ومراعاة شعورها :

وذلك لأن الحياة الزوجية تحتاج إلى لباقة في التصرف ولياقة في التعامل ، وكظم الغيظ والتعافي عن السقطات والزلات العابرة ، حتى لا يتعكر صفو الحياة الزوجية ويؤثر سلباً على تربية الأبناء ،لذا لزم أن تُمد هذه الحياة بدفعات من الحب والمودة والرحمة ، وأن لا يلجأ الزوج إلى العقاب البدني – الضرب – إلا في حالات استثنائية وعند استنفاذ الحلول الأخرى ، وبشكل جزئ وغير مبرح .

قال جل جلاله : ﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً ﴾ (٤) .

يقول ابن كثير في تفسير الآية : (أي : والنساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن. والنشوز: هو الارتفاع، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المُعْرِضَة عنه، المُبْغِضَة له. فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظْها وليخوّفها عقابَ الله في عصيانه فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال .

وقوله : ﴿ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ أي : إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران، فلكم أن تضربوهن ضربا غير مبرح

وقوله: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلا ﴾ أي : فإذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريد منها، مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها) (٥) .

---

١ . أخرجه الدارمي في سننه ، عن عائشة ، كتاب النكاح، باب في القسمة بين النساء ، رقم ٢٢٠٧ ، ١ /٦٢٨ ، وقال المحقق : إسناده صحيح.
٢ . سورة النساء ، آية ١٢٩ . ٣ . تيسير الكريم الرحمن ، السعدي ، ص ١٩٧ .
٤ . سورة النساء ، آية ٣٤ .
٥ . تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٢ / ٢٦٢ .

وفي الحديث أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : (ما حق المرأة على الزوج ؟ قال : يطعمها إذا طعم ويكسوها إذا اكتسى ثم لا يضرب الوجه ولا يقبح ولا يهجر إلا في البيت) (١) .

حقوق الزوج على زوجته :

الحق الأول . معرفة مكانته بالنسبة لها :

فقد قال الله تعالى : ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾ (٢) .

وقال أيضاً : ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**﴾ (٣) .

في هذه الآية ، يقول القرطبي – رحمه الله – : درجة أي منزلة ... فزيادة درجة الرجل بعقله وقوته على الإنفاق وبالدية والميراث والجهاد ... ، فدرجة تقتضي التفضيل وتشعر بأن حق الزوج عليها أوجب من حقها عليه (٤) .

وتأتي الأحاديث شارحة للقرآن ومبينة مكانة الزوج ، وهي مكانة تفوق كل تصور ، وواجب على المرأة العلم بها لتتصرف مع زوجها على أساسها ، ولتكون كالدافع لها في ألا تتبرم بزوجها ولا تمله ولا تنكر فضله عليها (٥) .

فقد جاء مرفوعاً عن رسول ﷺ أنه قال : (أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة) (٦) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) (٧) .

الحق الثاني . الطاعة وحسن العشرة :

جعل الله سبحانه وتعالى الرجل قواماً على المرأة ورئيسا لها ، فطاعة المرأة لزوجها واجبة عليها ، وعصيان زوجها محرم عليها ، وتعذب عليه في الدنيا والآخرة إذا لم ترجع عنه وتعتذر لزوجها حتى يسامحها ، ولذا قال تعالى : ﴿**فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ**﴾ (٨) .

والمعنى أن النساء الصالحات مطيعات لأزواجهن حافظات لغيبتهم إذا غابوا فيحفظن أنفسهن ، ويحفظن أموال أزواجهن وأولادهم حتى يعودوا ، وذلك بتوفيق الله لهن وحفظه . فالطاعة للزوج أول صفات المرأة المسلمة الصالحة (٩) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحصنت فرجها وأطاعت بعلها دخلت من أي أبواب الجنة شاءت) (١٠) .

---

١ . أخرجه ابن حبان في صحيحه ، عن حكيم بن معاوية عن أبيه ، كتاب النكاح ، باب معاشر الزوجين ، رقم ٤١٧٥ ، ٩ / ٤٨٢ ، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح .
٢ . سورة النساء ، آية ٣٤ .
٣ . سورة البقرة ، آية ٢٢٨ . ٤ . الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٢ / ١١٠ .
٥ . السلوك الاجتماعي في الإسلام ، حسن أيوب ، ص ٢٢٣ .
٦ . أخرجه الحاكم في المستدرك ، عن أم سلمة ، كتاب البر والصلة ، رقم ٧٣٢٨ ، ٤ / ١٩١ ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه . وقال الذهبي في التعليق على التلخيص : صحيح .

٧ . أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الرضاع ، باب حق الزوج على المرأة ، رقم ١١٥٩ ، ٣ / ٣٠٣ ، وقال الشيخ الألباني : حسن صحيح .
٨ . سورة النساء ، آية ٣٤ .
٩ . السلوك الاجتماعي في الإسلام ، حسن أيوب ، ص ٢٢٤ .
١٠ . أخرجه ابن حبان في صحيحه،كتاب النكاح ، باب معاشر الزوجين،رقم ٤١٦٣ ،٩ / ٤٧١ ، وقال الشيخ شعيب الأرناءوط :حديث صحيح.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ولا تأذن في بيته إلا بإذنه ...) [١] .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح) [٢] .

الحق الثالث . أن تتزين لزوجها [٣] :

فالزوجة التي يراها زوجها متزينة له ، متعطرة من أجله ، منظفة بيتها ودارها ، منظمة كل شئونها ، تستقبله ببسمتها ، وترطب وجدانه بحلاوة مقابلتها وكلامها ، وتمسح متاعبه بعطفها وحنانها وحسن تصرفها ، وتهيئ له الجو الهادئ المناسب لوقت راحته ، إن مثل هذه الزوجة متاع الدنيا وحوريتها ، وبهجة الحياة وبلسمها ، ونور البيت وجماله ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال : (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة) [٤] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت امرأة عثمان بن مظعون [٥] تخضب وتطيب فتركته فدخلت عليّ ، فقلت لها : أمشهد أم مغيب ؟ فقالت : مشهد كمغيب ، قلت لها : مالك ، قالت : عثمان لا يريد الدنيا ولا يريد النساء ، قالت عائشة : فدخل علي رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك ، فلقي عثمان فقال : يا عثمان أتؤمن بما نؤمن به ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : فأسوة مالك بنا [٦] .

فعائشة استنكرت على امرأة عثمان بن مظعون عدم التزين وزوجها معها ، ورسول الله ﷺ تدخل في الأمر لتعود الأمور إلى وضعها الإنساني الطبيعي الموافق لهدي الإسلام .

وروي أن أسماء ابن خارجة الفزاري [٧] قال لابنته عند التزوج : (إنك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت إلى فراش لم تعرفيه وقرين لم تألفيه ، فكوني له أرضاً يكن لك سماء ، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً ، وكوني له أمة يكن لك عبداً ، لا تلحفي به فيقلاك – لا تلحي عليه في المطالب فيبغضك – ، ولا تباعدي عنه فينساك ، إن دنا منك فادني منه ، وإن نأى فابعدي عنه واحفظي أنفه وسمعه وعينه ، فلا يشمن إلا طيباً ، ولايسمع إلا حسناً ، ولا يرى إلا جميلاً ، واعلمي أن أطيب الطيب الماء) [٨] .

---

١ . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب النكاح ، باب لا تأذن المرأة في بيتها لأحد إلا بإذنه ، رقم ٥١٩٥ ، ٩ / ٣٥٥ .
٢ . أخرجه مسلم في صحيحه ، عن أبي هريرة ، كتاب النكاح ، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها ، رقم ١٤٣٦ ، ٢ / ١٠٦٠ .
٣ . انظر السلوك الاجتماعي في الإسلام ، حسن أيوب ، ص ٢٢٦ .
٤ . أخرجه مسلم ، كتاب الرضاع ، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، رقم ١٤٦٧ ، ٢ / ١٠٩٠ .
٥ . هو عثمان بن مظعون الجمحي ، صحابي ، كان من حكماء العرب في الجاهلية ، وأسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً ، وهاجر إلى الحبشة مرتين ، وأراد التبتل والسياحة في الأرض زهداً بالحياة فمنعه ﷺ ، ثم أراد الرهبانية والتعبد فقال له ﷺ : إن خير الدين عند الله الحنيفية السمحة ، شهد بدراً ، ومات بعدها فقبله ﷺ ميتاً حتى رؤيت دموعه تسيل على خد عثمان ، وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين ، وأول من دفن بالبقيع منهم سنة ٢ هـ . انظر الطبقات الكبرى ٣ / ٣٠٠، صفة الصفوة ١ / ٢٣٣، أسد الغابة ٣ / ٥٨٩، شذرات الذهب ، الأعلام ٤ / ٢١٤ .
٦ . أخرجه أحمد في مسنده ، رقم ٢٤٦٣٤ ، ١٧ / ٤٢٠ ، وقال المحقق : إسناده صحيح .

٧ . هو أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة الفزاري: تابعي من رجال الطبقة الأولى. من أهل الكوفة بالعراق ، كان سيد قومه جوادا مقدما عند الخلفاء.قال له عبد الملك ابن مروان: ثم سدت الناس يا أسماء ؟ فقال: هو من غيري أحسن ! فعزم عليه، فقال: ما سألني أحد حاجة إلا رأيت له الفضل علي. وزوج ابنة له فقال يوصيها:يا بنية كوني لزوجك أمة يكن لك عبدا،ولا تدني منه فيملك ولا تتباعدي عنه فيتغير عليك.توفي سنة ٦٦ هـ .انظر الطبقات الكبرى ٦ / ٢٤٧ ، أسد الغابة ٣ / ٣٣٠ ، الوافي بالوفيات ٩ / ٣٧ ، شذرات الذهب ،الأعلام١ / ٣٠٥ .

٨ . انظر إحياء علوم الدين ، الغزالي ، كتاب النكاح ، باب في آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح ، ٢ / ٨٢ .

حقوق الأبناء على الآباء :

أ . اختيار الأم المربية ، والزوجة الصالحة .

لأنها سكن الزوج ، ومنبت الأولاد ، وهي المدرسة التي يتخرج منها الفئة المؤمنة الصالحة ، التي تشق طريقها في المجتمع بالبذل والعطاء والبناء ، ويكون لها دورها المؤثر في نهضة أمتها وازدهارها .

لذلك قال ﷺ في الحديث السابق : (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة) ، وقال في حديث آخر : (... فاظفر بذات الدين تربت يداك) [١] .

ب . الأذان في أذن المولود ، وحسن تسميته ، والعقيقة له .

يسن الأذان في أذن المولود اليمنى . فعن أبي رافع رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ قال : (رأيت رسول الله ﷺ أذن في أذن الحسن بن علي حين ولدته فاطمة بالصلاة) [٢] ، يعني بأذان الصلاة .

ويسن أيضاً أن يسمى باسم حسن يوم ولادته أو يوم السابع ، ويعق له بشاة أو شاتين أو ما تيسر ، لقوله ﷺ : (كل غلام رهينة بعقيقته ، تذبح عنه يوم سابعه ويحلق ويسمى) [٣] .

ولقوله ﷺ حين ولد له إبراهيم : (ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم) [٤] .

وقال رسول الله ﷺ : (إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم) [٥] .

ج . النفقة :

نفقة الصغار ذكوراً أو إناثاً واجبة على الوالد حتى يشتد عود الذكر ويستطيع أن يعول نفسه ، وحتى تتزوج الأنثى ، لقول الرسول ﷺ : (اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول) [٦] ، وقال أيضاً : (إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، حفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته) [٧] .

د . التربية والتعليم :

يجب تعليم الأولاد ما هو ضروري في حقهم من علوم الدين ، وعلوم الواقع ، وهذا التعليم هو جزء من التربية التي تتطلب تعهد مستمر حتى تؤتي الثمار أكلها ، ويبرز للأمة رجال ونساء قادرين على تحمل المسؤوليات التي توكل إليهم ، وعلى أتم الجاهزية في بناء الأجيال ، وتشييد الصروح .

فمن الآيات التي تحث على تربية الأهل والأولاد على الفضيلة والصلاح ، وإبعادهم عن الفجور والمعاصي ، قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ [٨] .

---

١ . متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان ، عن أبي هريرة ، كتاب الرضاع ، استحباب نكاح ذات الدين ، رقم ٩٢٨ ، ص ٢٨٥ .

٢ . أخرجه أبو داود في سننه عن أبي رافع عن أبيه ، كتاب الآداب ، رقم ٥١٠٥ ، ٥ / ٢٠٩ ، وقال الشيخ الألباني : حسن .

٣ . أخرجه أبو داود في سننه ، عن سمرة بن جندب ، كتاب الضحايا ، رقم ٢٨٣٨ ، ٣ / ١٧٦ ، وقال الألباني : صحيح .

٤ . أخرجه مسلم ، عن أنس بن مالك ، كتاب الفضائل ، باب رحمته صلى الله عليه وسلم بالصبيان والعيال ، رقم ٢٣١٥ ، ٤ / ١٨٠٧ .

٥ . أخرجه أبو داود في سننه ، عن أبي الدرداء، كتاب الأدب ، رقم ٤٩٤٨ ، وضعفه الألباني ، ٥ / ١٤٩ .
٦ . أخرجه البخاري في صحيحه ، عن حكيم بن حزام ، كتاب الزكاة ، باب لا صدقة إلا عن ظهر غني ، رقم ١٤٢٧ ، ٣ / ٣٦٢ .
٧ . أخرجه ابن حبان في صحيحه ، عن قتادة عن الحسن ، كتاب السير ، باب في الخلافة والإمارة ، رقم ٤٤٩٣ ، ١٠ / ٣٤٥وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط : رجاله رجال الشيخين وهو مرسل ٨ . سورة التحريم ، آية ٦ .

ومن التوجيهات النبوية الدالة على تعليم الأبناء وتربيتهم ، قول الرسول ﷺ : (مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع) [١] .

هـ . الرحمة بالأولاد والتلطف معهم :

لكي ينشأ الأولاد نشأة سوية خالية من العقد ، ومن الكبت والضغط ، يحتاجون إلى أن يعاملوا معاملة رحيمة رقيقة لطيفة في صغرهم ، وأن يشعروا بالاستقرار والراحة النفسية والسعادة القلبية وهم بين آبائهم وأمهاتهم .

ولذلك كان الرسول ﷺ يعامل الصبية معاملة كلها رحمة ورقة وتلطف بهم ، وكان يلوم على القسوة والجمود ، ويضرب الأمثلة للناس ليغير المفاهيم الخاطئة ، ويرسي أصول المحبة والرحمة والشفقة [٢] .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قبل رسول الله ﷺ الحسن أو الحسين بن علي ، وعنده الأقرع بن حابس التميمي [٣] ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً قط ، فنظر إليه رسول الله ﷺ . ثم قال : (من لا يَرْحم لا يُرْحم) [٤] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : إنكم تقبلون الصبيان وما نقبلهم ، فقال رسول الله ﷺ : (أوَ أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك) [٥] .

و . التسوية بين الأولاد :

الأصل في هذا الحق ، حديث النعمان [٦] بن بشير ، فقد روي عنه أنه قال : إن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال : إني نحلت [٧] ابني هذا غلاماً كان لي ، فقال رسول الله ﷺ : (أكُلَّ ولدك نحلته مثل هذا ؟) فقال : لا . فقال رسول الله ﷺ : (فأرجعه) .

وجاء في رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال له : (أفعلت بولدك هذا كلهم ؟) ، قال : لا ، قال : (اتقوا الله واعدلوا في أولادكم) ، قال : فرجع أبي فرد تلك الصدقة [٨] .

---

١ . أخرجه أبو داود في سننه ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، كتاب الصلاة ، رقم ٤٩٥ ، ١ /٣٣٤ وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح .
٢ . انظر السلوك الاجتماعي في الإسلام ، حسن أيوب ص ٢٤١ .
٣ . هو الأقرع بن حابس بن عقال المجاشعي الدرامي التميمي: صحابي، من سادات العرب في الجاهلية. قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد من بني دارم (من تميم) فأسلموا. وشهد حنينا وفتح مكة والطائف. وسكن المدينة. وكان من المؤلفة قلوبهم ، ورحل إلى دومة الجندل في خلافة أبي بكر. وكان مع خالد بن الوليد في أكثر وقائعه حتى اليمامة.واستشهد بالجوزجان سنة ١٣ هـ . ومن المؤرخين من يرى أن اسمه (فراس) وأن الأقرع لقب له، لقرع كان برأسه . انظر الطبقات الكبرى ٧ / ٢٧ ، أسد الغابة ١ / ٢٦٤ ، شذرات الذهب ، الأعلام ٢ / ٥ .
٤ . متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الفضائل ، باب في رحمته بالصبيان و العيال ، رقم ١٤٩٧ ، ص ٥٠٠ .
٥ . متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الفضائل ، باب في رحمته بالصبيان و العيال ، رقم ١٤٩٦ ، ص ٥٠٠ .
٦ . هو النعمان بن بشير الخزرجي الأنصاري، أمير و خطيب و شاعر، من أجلاء الصحابة. من أهل المدينة. له ١٢٤ حديثا. وجهته نائلة (زوجة عثمان) بقميص عثمان، إلى معاوية، فنزل الشام. وشهد " صفين " مع معاوية. وولي القضاء بدمشق، بعد فضالة بن عبيد (سنة ٥٣ هـ) وولي اليمن

لمعاوية، ثم استعمله على الكوفة، تسعة أشهر، وعزله وولاه حمص. واستمر فيها إلى أن مات يزيد بن معاوية، فبايع النعمان لابن الزبير. وتمرد أهل حمص، فخرج هاربا، فاتبعه خالد بن خلي الكلاعي فقتله سنة ٦٥ هـ ، وهو أول مولود ولد في الأنصار بعد الهجر سنة ٢ هـ . انظر الطبقات الكبرى٦ / ١٢٢ ، أسد الغابة ٥ / ٣١٠ ، وفيات الأعيان ١ / ١٣٠ ، شذرات الذهب ، الأعلام ٨ / ٣٦ .

٧ . نحلت : وهبت وأعطيت . انظر أساس البلاغة،الزمخشري ص ٦٢٣ ، ولسان العرب ، ابن منظور، ١١ / ٦٥٠ ، والمعجم الوسيط ٩١٤/٢ .

٨ . أخرج الروايتين مسلم في صحيحه ، كتاب الهبات ، باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة ، رقم ١٦٢٣ ، ٣ / ١٢٤٣ .

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح الحديث : (وفي هذا الحديث أنه ينبغي أن يسوى بين أولاده في الهبة ويهب لكل واحد منهم مثل الآخر ولا يفضل ويسوى بين الذكر والأنثى وقال بعض أصحابنا يكون للذكر مثل حظ الأنثيين والصحيح المشهور أنه يسوي بينهما لظاهر الحديث) [١] .

حقوق الوالدين على الأولاد :

تتلخص هذه الحقوق في الإحسان إليهما ، والبر بهما حال حياتهما وبعد مماتهما ، ونسرد هنا طائفة من الآيات والأحاديث التي تجمع هذه المعاني :

يقول الله تعالى : ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً** ﴾ [٢] ، أي وأحسنوا بالوالدين إحساناً تاماً ، لا تقصروا في شيء منه ... والإحسان في المعاملة يعرفه كل أحد ، ويختلف باختلاف أحوال الناس وطبقاتهم ، فإن العاصي الجاهل ليدري كيف يحسن إلى والديه ويرضيهما ما لا يدري العالم النحرير إذا أراد أن يحدد له ذلك [٣] .

وقال تعالى : ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ [٤] .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (سألت رسول الله ﷺ : أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أي ؟ قال : بر الوالدين . قلت ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله) [٥] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :(لا يجزئ ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه) [٦] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (رغم أنفه ، ثم رغم أنفه ، ثم رغم أنفه، قيل من يا رسول الله ؟ قال : من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة) [٧] .

وفي التحذير من عقوق الوالدين ، يقول النبي ﷺ : (الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس) [٨] .

وحق الأم في البر مقدم على حق الأب ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : ثم أمك . قال : ثم من ؟ قال : ثم أمك ، قال : ثم من ؟ ، قال : ثم أبوك) [٩] .

---

١ . شرح صحيح مسلم ، النووي، كتاب الهبات ، باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة ، دار إحياء التراث العربي، ١١ / ٦٦ .

٢ . سورة النساء ، آية ٣٦ .

٣ . انظر تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، ٥ / ٦٩ .

٤ . سورة لقمان ، آية ١٤ .

٥ . أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل الصلاة لوقتها ، رقم ٥٢٧ ، ٢ / ١٢ .

٦ . أخرجه مسلم ، كتاب العتق ، باب فضل عتق الوالد ، رقم ١٥١٠ ، ٢ / ١١٤٨ .

٧ . أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة ، رقم ٢٥٥١ ، ١٩٧٨/٤ .

٨ . أخرجه البخاري ، عن عبد الله بن عمرو ، كتاب الأيمان والنذور ، باب اليمين الغموس ، رقم ٦٦٧٥ ، ١١ / ٦١٨ ، واليمين الغموس : التي ينغمس صاحبها في الإثم وبالغ في نقض عهدها .

٩ . أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب بر الوالدين وأنهما أحق به ، رقم ٢٥٤٨ ، ٤ / ١٩٧٤ .

والأبوان المشركان لهما حق البر أيضاً ، فقد أخرج البخاري عن أسماء بنت أبي بكر قالت [١] قالت : أتتني أمي راغبة فسألت النبي ﷺ : أأصلها ؟ قال : نعم ، فأنزل الله فيها : ﴿ **لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [٢] .

ومن البر بالوالدين ، استئذانهما للجهاد ، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال :(جاء رجل إلى نبي الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد ، فقال : أحي والداك ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد) [٣] .

وهذا دليل على وجوب استئذان الأبوين للجهاد إذا لم يتعين الجهاد عليه ؛ لأنه حين يتعين يصير فرض عين لا فرضاً كفائياً ، وهو يصير فرض عين في أحوال ثلاثة :

. أن يهاجم العدو بلده .

. أن يختاره الإمام المسلم للقتال .

. أن يكون الجيش الذي يدافع عن بلد إسلامي غير كاف ويستطيع أن يساعد هذا الجيش [٤] .

وقال الجصاص [٥] في أحكام القرآن : (قال أصحابنا : لا يجوز أن يجاهد إلا بإذن الأبوين إذا قام بجهاد العدو من قد كفاه الخروج ، قالوا فإن لم يكن بإزاء العدو من قد قام بفرض الخروج فعليه الخروج بغير إذن أبويه ؛ لأن الجهاد عندها يكون فرض عين على كل قادر ، وليس فرض كفاية بحيث إذا قام به بعضهم سقط عن الباقين) [٦] .

كما للوالدين حق البر في حياتهما فلهما حق البر بعد موتهما أيضاً ، لقوله تعالى : ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً** ﴾ [٧] ، ولقوله ﷺ : (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة ، إلا من : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له) [٨] .

ومن البر بهما بعد الموت صلة أقربائهما وأصدقائهما ، لقول رسول الله ﷺ : (إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه) [٩] .

---

١ . هي أسماء بنت أبي بكر الصديق عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر، من قريش: صحابية، من الفضليات. آخر المهاجرين والمهاجرات وفاة. وهي أخت عائشة لأبيها، وأم عبد الله بن الزبير. تزوجها الزبير بن العوام فولدت له عدة أبناء بينهم عبد الله. ثم طلقها الزبير فعاشت بمكة مع ابنها عبد الله، إلى أن قتل. فعميت بعد مقتله وتوفيت بمكة. وهي وابنها وأبوها وجدها صحابيون. شهدت اليرموك مع ابنها عبد الله وزوجها . وكانت فصيحة حاضرة القلب واللب، تقول الشعر. وخبرها مع الحجاج بعد مقتل ابنها عبد الله، مشهور. عاشت مئة سنة وهي محتفظة بعقلها وتوفيت عام ٧٣ هـ . وسميت (ذات النطاقين) لأنها صنعت للنبي صلى عليه وسلم طعاما حين هاجر إلى المدينة، فلم تجد ما تشده به، فشقت نطاقها وشدت به الطعام. لها ٥٦ حديثا. انظر الطبقات الكبرى١٩٦/٨، صفة الصفوة٤١/١،أسد الغابة٧/٧،الوافي بالوفيات٣٦/٩ ، شذرات الذهب ،الأعلام١ / ٣٠٥.

٢ . فتح البارئ مع صحيح البخاري ، كتاب الآداب ، باب صلة الوالد المشرك ، رقم ٥٩٧٨، ١٠ /٤٩٨ ، والآية رقم ٨ من سورة الممتحنة .

٣ . متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان ، عن عبد الله بن عمرو ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب بر الوالدين وأنهما أحق به ، رقم١٦٥٣،ص٥٦٥.

٤ . السلوك الاجتماعي في الإسلام ، حسن أيوب ، ص ٢٥٩ .

٥ . هو أحمد بن علي الرازي، أبو بكر الجصاص : فاضل من أهل الري، سكن بغداد ومات فيها. انتهت إليه رئاسة الحنفية. وخوطب في أن يلي القضاء فامتنع. وألف كتاب أحكام القرآن ، وكتابا في أصول الفقه . توفي سنة ٣٧٠هـ . انظر وفيات الأعيان ٥ / ٣٣٨، الوافي بالوفيات ٧ / ١٥٨ ، الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، شذرات الذهب ، الأعلام ١ / ١٧١ .

٦ . انظر أحكام القرآن ، الجصاص ، ٣ / ١٥٦ . ٧ . سورة الإسراء ، آية ٢٤ .

٨ . أخرجه مسلم ، عن أبي هريرة ، كتاب الوصية ، ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ، رقم ١٦٣١ ، ٣ / ١٢٥٥ .

٩ . أخرجه مسلم ، عن عبد الله بن عمر ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما ، رقم ٢٥٥٢ ، ٤ / ١٩٧٨ .

ومن الحقوق الخاصة أيضاً : صلة الأرحام ، ورعاية اليتيم ، وحقوق الجيران ، وحقوق الخدم ، ... الخ .

وهناك حقوق وواجبات عامة ، تندرج تحت حق الأخوة الإسلامية العامة ، مثل : حب الخير لكل أخ في الإسلام ، وقضاء الحوائج ، والوفاء بالعهد ، والعناية بالضعيف ورحمة الصغير وتوقير الكبير ، والسلام ، والاستئذان ، وتشميت العاطس ، وإبرار القسم ، وإجابة الداعي ، والنصيحة ، ... الخ .

والأصل في هذه الحقوق ، قوله تعالى : ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ (١) ، ﴿**فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً**﴾ (٢) .

وقوله ﷺ : (لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث أيام) (٣) .

وعن البراء بن عازب (٤) رضي الله عنه قال : (أمرنا النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع أمرنا بإتباع الجنائز ، وعيادة المريض وإجابة الداعي ، ونصر المظلوم ، وإبرار القسم ، ورد السلام ، وتشميت العاطس . ونهانا عن آنية الفضة ، وخاتم الذهب ، والحرير ، والديباج ، والقسي (٥) ، والإستبرق) (٦) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (حق المسلم على المسلم خمس رد السلام وعيادة المريض وإتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس) (٧) .

وقوله ﷺ : (... يا أيها الناس أفشوا السلام ، و أطعموا الطعام ، و صلوا الأرحام ، و صلّوا بالليل والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام) (٨) .

بجانب هذه الحقوق ، توجد آداب تتناول : آداب الأكل والشرب ، وآداب المجلس والضيافة ، وآداب الحديث مع الغير ، وآداب الطريق والحركة ، وآداب الزيارة ، وآداب العلم والتعلم ، وآداب الإصلاح بين الناس ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... الخ .

---

١ . سورة الحجرات ، آية ١٠ . ٢ . سورة آل عمران ، آية ١٠٣ .

٣ . أخرجه البخاري ، عن أنس بن مالك ، كتاب الأدب ، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر ، رقم ٦٠٦٥ ، ١٠ / ٥٨٣ .

٤ . هو البراء بن عازب بن الحارث الخزرجي، أبو عمارة : قائد صحابي من أصحاب الفتوح . أسلم صغيراً وغزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة غزوة، أولها غزوة الخندق. ولما ولي عثمان الخلافة جعله أميرا على الري (بفارس) سنة ٢٤ هـ ، فغزا أبهر (غربي قزوين) وفتحها، ثم قزوين فملكها، وانتقل إلى زنجان فأفتتحها عنوة . وعاش إلى أيام مصعب ابن الزبير فسكن الكوفة واعتزل الأعمال. وتوفي في زمنه سنة ٧١ هـ . انظر الطبقات الكبرى ٤ / ٢٦٩ ، ٦ / ٩٥ ، الوافي بالوفيات ١٠ / ٦٥ ، شذرات الذهب ، الأعلام ٢ / ٤٦ .

٥ . القسّي : وهي ثياب من كتان مخلوط بحرير يؤتى بها من مصر نسبت إلى قرية على شاطىء البحر قريبا من تنيس يقال لها القس بفتح القاف وبعض أهل الحديث يكسرها . النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الجزري ، ٤ / ٩٢ .

٦ . أخرجه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الأمر بإتباع الجنائز ، رقم ١٢٣٩ ، ٣ / ١٤١ ، قال ابن حجر : وسقط من المنهيات في هذا الباب (المياثر الحمر : الفرش من الحرير) سهوا إما من المصنف أو شيخه .

٧ . أخرجه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الأمر بإتباع الجنائز ، رقم ١٢٣٩ ، ٣ / ١٤١ .

٨ . أخرجه الحاكم في المستدرك ، عن عبد الله بن سلام ، كتاب البر والصلة ، رقم ٧٢٧٧ ، ٤ / ١٧٦ وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

فقه الواقع في مجال المعاملات :

١ . استعمال الأصلح ووجوب توليته .

تولية الأصلح من الأمور المقررة شرعاً ، ولا يجوز تجاوزها ؛ لأن الشريعة مدارها حول جلب المصالح ودرء المفاسد ، ولا يتم ذلك إلا بتوظيف الصلحاء الأمناء الأكفاء في شؤون الحكم ، وفنون الولايات ، وما لم يتم الواجب إلا به فهو الواجب .

يقول شيخ الإسلام ابن تيميه – رحمه الله – : (يجب على كل من ولي من أمر المسلمين أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه ولا يقدم الرجل ؛ لكونه طلب الولاية أو سبق في الطلب بل يكون ذلك سبب المنع [١] ، فإن في صحيح البخاري عن النبي أن قوماً دخلوا عليه فسألوه ولاية فقال : " إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه ") [٢] .

وللقيادة أو الولاية شرطان : الأمانة والكفاءة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [٣] ، وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال كيف إضاعتها يا رسول الله ؟ قال : إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة) [٤] .

ولتحقيق هذين الركنين يستلزم فقه بطبيعة الأفراد وواقعهم ، ومعرفة بمؤهلاتهم وقدراتهم العلمية والعملية ، أي بقراءة شاملة وعميقة لشخصياتهم وسيرتهم بين الناس ، وبناءً على ذلك يتم اختيار الأفضل ، واستعمال الأصلح لقيادة الأمة وتدبير شؤونها .

[واجتماع القوة والأمانة في الناس قليل ، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : اللهم أشكوا إليك جلد الفاجر وعجز الثقة .

فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها ، فإذا تعين رجلان : أحدهما أعظم أمانة والآخر: أعظم قوة قدم أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما ضررا فيها ؛ فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع ، وإن كان فيه فجور على الرجل الضعيف العاجز ، وإن كان أميناً . كما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو : أحدهما : قوي فاجر والآخر : صالح ضعيف ، مع أيهما يغزى ؟ فقال : أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه ، وأما الصالح

١ . يقول الشيخ ابن عثمين معلقاً : معناه أن طلب الولاية سبب في منع من طلب ، وأما الذين يطلبون الولاية في الانتخابات فإنهم لا يقصدون أن يتولوا هم ، والله أعلم بنياتهم ، لكن يقصدون أن يتولى حزبهم مثلاً ؛ لأن هناك حزباً مضاداً ، فلو تركت الأحزاب الأخرى الضالة فإنه يحصل الفساد ، وهذا كقول يوسف عليه السلام للعزيز : ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ . السياسة الشرعية لابن تيمية ، ص ٢٢ .

٢ . انظر المصدر السابق ، ص ٢٢ ، والحديث أخرجه البخاري عن أبي موسى ، كتاب الأحكام ، باب ما يكره من الحرص على الإمارة رقم ٧١٤٩ ، ١٣ / ١٥٥ .

٣ . سورة القصص ، آية ٢٦ .

٤ . أخرجه البخاري ، كتاب الرقائق ، باب رفع الأمانة ، رقم ٦٤٩٦ ، ١١ / ٣٧٥ .

الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين ، يغزى مع القوي الفاجر ، وقد قال ﷺ: (...وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) [١] ، وروي : (ليؤيدن الله هذا الدين بقوم لا خلاق لهم) [٢] ، فإن كان فاجراً كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين إذا لم يسد مسده] [٣] .

ولهذا كان النبي ﷺ يستعمل خالد بن الوليد [٤] على الحرب منذ أسلم وقال : (خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين) [٥] مع أنه أحيانا كان قد يعمل ما ينكره النبي ﷺ .

وكان أبو ذر رضي الله عنه أصلح منه في الأمانة والصدق ، ومع هذا فقد قال له النبي ﷺ : (يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي : لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم) [٦] . فنهى أبا ذر عن الإمارة والولاية لأنه رآه ضعيفاً ، مع أنه قد روي : (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق من أبي ذر) [٧] .

وإذا لم نجد من تتوفر فيه القوة والأمانة على وجهه الأكمل ، نختار الأصلح فالأصلح ، والأمثل فالأمثل ، وإذا اختير الأصلح في وقته وحسب واقع الناس ، وتبين أنه غير صالح وجب أن يعدل عنه .

وإذا كنا نريد أن نولي على أمارة ، ووجدنا شخصاً قوياً لكنه ليس أميناً نضم إليه أميناً ، وكذلك إذا كان أميناً ولكنه ليس بقوي نضم إليه قوياً ، فيكون مساعداً له أو نائباً يرجع إليه في الأمور وإذا رأي فيه تقصيراً أمره بأن يتمم الأمر [٨] .

ولهذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يؤثر استنابة خالد ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يؤثر عزل خالد واستنابة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ؛ لأن خالداً كان شديداً كعمر بن الخطاب ، وأبا عبيدة كان ليناً كأبي بكر، وكان الأصلح لكل منهما أن يولي من ولاه ؛ ليكون أمره معتدلاً [٩] .

---

١ . متفق عليه ، عن أبي هريرة ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ، رقم ٧١ ، ص ٢٩ .

٢ . أخرجه ابن حبان في صحيحه ، عن أنس بن مالك ، كتاب السير ، باب في الخلافة والإمارة ، رقم ٤٥١٧ ، ١٠ / ٣٧٦ ، وقال الشيخ شعيب الأرناءوط : حديث صحيح .

٣ . انظر السياسة الشرعية ، ابن تيمية ، ص ٤٣ .

٤ . هو خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي: سيف الله الفاتح الكبير، الصحابي. كان من أشراف قريش في الجاهلية، يلي أعنة الخيل، وشهد مع مشركيهم حروب الإسلام إلى عمرة الحديبية، وأسلم قبل فتح مكة هو وعمرو بن العاص سنة ٧ هـ ، فسر به رسول الله ﷺ وولاه الخيل. ولما ولي أبو بكر وجهه لقتال مسيلمة ومن ارتد من أعراب نجد. ثم سيره إلى العراق سنة ١٢ هـ ، ففتح الحيرة وجانبا عظيما منه. وحوله إلى الشام وجعله أمير من فيها من الأمراء. ولما ولي عمر عزله عن قيادة الجيوش بالشام وولي أبا عبيدة بن الجراح، فلم يثن ذلك من عزمه، واستمر يقاتل بين يدي أبي عبيدة إلى أن تم لهما الفتح سنة ١٤ هـ فرحل إلى المدينة، فدعاه عمر ليوليه، فأبى.ومات بحمص في سورية ، وقيل بالمدينة سنة ٢١ هـ . كان مظفرا خطيبا فصيحا .

يشبه عمر بن الخطاب في خلقه وصفته. قال أبو بكر: عجزت النساء أن يلدن مثل خالد ! روى له المحدثون ١٨ حديثا. وأخباره كثيرة. انظر الطبقات الكبرى ٤ / ١٩٠ ، ٧ / ٢٧٦ ، صفة الصفوة ١ / ٣٣٠ ، أسد الغابة ٢ / ١٤٠ ، الوافي بالوفيات ١٣ / ١٦٠ ، شذرات الذهب ، الأعلام٢ / ٣٠٠ .

٥ . صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته ، عن عمر ، رقم ٥٥١٨ ، ١ / ٥٥٢ ، وقال الشيخ الألباني : صحيح .

٦ . أخرجه مسلم ، عن أبي ذر ، كتاب الإمارة ، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة ، رقم ١٨٢٥ ، ٣ / ١٤٥٨ .

٧ . أخرجه الترمذي ، عن عبد الله بن عمرو ، كتاب المناقب ، باب مناقب أبي ذر ، رقم ٣٨٠١ ، ٥ / ٤٨٦ ، وقال : حديث حسن ، وصححه الشيخ الألباني .

٨ . من كلام ابن عثيمين في شرح السياسة الشرعية لابن تيمية ، ص ٤٣ ، ٤٧ .

٩ . السياسة الشرعية ، ابن تيمية ، ص ٤٦ .

وبذلك يتم الجمع بين المصلحتين ، فالأمراء الأقوياء يجب عليهم أن يتخذوا أهل المشورة من أولي العلم ، كلٍ في موضعه وعلى حسب تخصصه ، ففي الأمور الشرعية يستشار أهل العلم الشرعي ، وفي الأمور الحربية يستشار أهل العلم بالحرب ، وفي أمور الصناعة يستشار أهل العلم بالصناعة ، وفي أمور الزراعة يستشار أهل العلم بالزراعة ؛ وهكذا لأن كل أحد يدرك ما لا يدركه الآخر (١) .

والخلاصة مما سبق : أنه يجب أن يولى في الأمانات من كان أقرب إلى القيام بها ، فهناك أشياء يرجح فيها جانب الأمانة ، وأشياء نرجح فيها جانب القوة ، بحسب ما يتطلب هذا ، وإذا كان رؤساء ونواب ينبغي أن نجعل الرئيس ذا قوة ونائبه ذا لين ، أو بالعكس ، حتى تكون قوة هذا تقابل بلين الآخر ، وكذلك العكس ؛ لأن هذا هو الميزان ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ (٢) .

٢ . **اشتمال العقوبات على الإصلاح والتطهير** .

الزواجر والعقوبات من قصاص وحدود وتعزير ، ما هي إلا إصلاح لحال الناس ، فمقصد الشريعة من الجنايات ثلاثة أمور : تأديب الجاني ، وإرضاء المجني عليه ، وزجر المقتدي بالجناة .

فبإقامة العقوبة على الجاني يزول من نفسه الخبث الذي بعثه على الجناية ، والذي يظن أن عمل الجناية أرسخه في نفسه إذ صار عملياً بعد أن كان نظرياً ، ولذلك فرع الله تعالى على إقامة الحد قوله : ﴿**فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ (٣) .

وللعقوبة هدف آخر بجانب الإصلاح ، هو التطهير من رجس المعصية ودنس الخطيئة ، رجاء العفو والغفران يوم القيامة ، وهو الدافع الذي حمل ماعز والغامدية على الاعتراف الذاتي بالجريمة وتحمل تبعات العقوبة .

(فعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله طهرني فقال : ويحك . ارجع فاستغفر الله وتب إليه قال: فرجع غير بعيد ثم جاء فقال : يا رسول الله طهرني فقال رسول الله ﷺ : ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه ، قال : فرجع غير بعيد ثم جاء فقال : يا رسول الله طهرني فقال النبي ﷺ مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ : فيم أطهرك ؟ ، فقال : من الزنا . فسأل رسول الله ﷺ : أبه جنون ؟ ، فأخبر أنه ليس بمجنون فقال : أشرب خمراً ؟ ، فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر . قال : فقال رسول الله ﷺ : أزنيت ؟ فقال : نعم ، فأمر به فرجم فكان الناس فيه فرقتين قائل يقول : لقد هلك لقد أحاطت به خطيئته وقائل يقول ما توبة أفضل من توبة ماعز أنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده ثم قال : اقتلني بالحجارة ، قال : فلبثوا بذلك يومين أو

ثلاثة ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس فسلم ثم جلس فقال : استغفروا لماعز بن مالك ، قال : فقالوا غفر الله لماعز بن مالك قال : فقال رسول الله ﷺ ، لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعته .

---

١ . انظر السياسة الشرعية لابن تيمية ، شرح ابن عثيمين في الهامش ، ص ٤٩ .

٢ . المصدر السابق ، شرح ابن عثيمين في الهامش ، ص ٦٨ ، والآية ٢٥ من سورة الحديد .

٣ . سورة المائدة ، آية ٣٩ .

قال : ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد فقالت : يا رسول الله طهرني فقال : ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه ، فقالت : أراك تريد أن ترددني كما رددت ماعز بن مالك قال : وما ذاك ؟ ، قالت : إنها حبلى من الزنا فقال : آنت ؟ ، قالت : نعم فقال لها : حتى تضعي ما في بطنك ، قال : فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت ، قال : فأتى النبيﷺ فقال : قد وضعت الغامدية فقال : إذاً لا نرجمها وندع لها ولدها صغيراً ليس له من يرضعه ، فقام رجل من الأنصار فقال : إليَّ رضاعه يا نبي الله ، قال : فرجمها) [١] .

فإذا كانت العقوبة رادعة ومصلحة وقت وقوعها ، فإن الأمر لا يقتصر عليها بل يستوجب رعاية اجتماعية ، ومتابعة تربوية ، للحالات التي يعاقب عليها القانون بالسجن والعقوبات الأخرى ، ومن المفترض أن تتوفر مؤسسات تأهيلية تعيد الجاني – الذي يرتجى إصلاحه – إلى شخصيته السوية وتدمجه في واقعه الاجتماعي .

إن هذه الجهود لا شك تحتاج إلى كفاءات مختصة في العلوم السلوكية والتربوية ، ولها القدرة على فهم واقع المجرمين سواءً كانوا أحداثاً أو بالغين ، وهذا الفهم مع الجانب المعرفي والخبرة العملية هو قوام العملية الإصلاحية والتأهيلية للمجرمين والجناة .

٣ . **إدارة الأموال وتملكها** .

إدارة الأموال تكون باستثمار المال ، والاحتراف فيه ، والانتفاع به ، وذلك يحتاج إلى إلمام ودراية بأمور التجارة ، وتقلبات السوق ، ونفسيات الزبائن واحتياجاتهم ، وبشكل عام فهم الواقع المالي وما يدور فيه .

وللبشر حق الانتفاع بما في أيديهم من مال الله وهو الحق الوحيد الذي لهم على هذا المال .. والانتفاع بالمال قد يكون باستغلاله أو استثماره كما هو الحال في الأراضي الزراعية والشركات الصناعية ، وقد يكون باستهلاك المال كما هو الحال في الطعام والشراب والثمار ، وقد يكون بالتصرف في في المال تصرفاً شرعياً كالبيع والوصية والهبة [٢] .

وفي القرآن والسنة وسير السلف الصالح ، شواهد كثيرة ، تحث على تملك الأموال وإدارتها ، وتوظيفها نحو العمران والإصلاح في الأرض ، يقول تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾ [٣] .

(وعن أبي هريرة رضي الله عنه : عن النبي ﷺ : ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [٤] قال : هم الذين ﴿يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [٥] . وعن مجاهد في قوله عز وجل : ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [٦] ، قال : التجارة) [٧] .

ويقول الرسول ﷺ : (نعم المال الصالح للمرء الصالح) [٨] .

---

١ . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الحدود ، باب من اعترف على نفسه بالزنا ، رقم ١٦٩٥ ، ٣ / ١٣٢٢ .
٢ . انظر المال والحكم في الإسلام ، عبد القادر عودة ، ص ٥٥ .
٣ . سورة الملك ، آية ١٥ .
٤ . سورة النور ، آية ٣٧ .
٥ . سورة المزمل ، آية ٢٠ .
٦ . سورة البقرة ، آية ٢٦٧ .
٧ . إصلاح المال ، لابن أبي الدنيا ، اسطوانة المكتبة الشاملة .
٨ . أخرجه أحمد في مسنده ، عن عمرو بن العاص ، مسند الشاميين ، رقم ١٧٦٩٢ ، ١٣ / ٤٨٧ ، وقال المحقق : إسناده صحيح .

(ولما كان زمن عمر فكثر المال وحدثت الأعطية وكف الناس عن طلب المعيشة قال عمر : أيها الناس أصلحوا معايشكم فإن فيها صلاحاً لكم وصلة لغيركم .

ويقول سعيد بن المسيب : لاخير بمن لا يريد جمع المال من حله يكف به وجهه عن الناس ، ويصل به رحمه ، ويعطي منه حقه .

وقال سفيان الثوري [١] : المال في هذا الزمان سلاح المؤمن) [٢] .

وإذا كان لكل فرد حق الانتفاع بما في يده من مال الله في الحدود المشروعة ، فإن للغير حقوقاً فرضها الله في هذا المال وأوجب على من في يده المال أن يقوم بها باعتباره مستخلفاً في مال الله ، الذي هو عارية في يد البشر : ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [٣] ، فليس للبشر أن يتأخروا عن إنفاذ أمر الله في هذا المال ، فإذا أمرهم أن يؤتوا فئات من هذا المال فعليهم أن يبادروا بذلك فما يؤتونهم إلا من مال الله:﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ [٤] ، وهذه الحقوق هي : الزكاة ، والإنفاق الذي هو نوعان : إنفاق الفريضة ، وإنفاق التطوع أو صدقة التطوع ، وإنفاق الفريضة نوعان : إنفاق في سبيل الله ، وإنفاق على ذوي الحاجة [٥] .

٤ . **التدرج في القضاء على الرقيق مراعاة للواقع** .

تنظر الشريعة الإسلامية إلى الرق نظرة واقعية للغاية تتفق مع كرامة الإنسان وخصائصه العليا ، مهما تقول المستشرقون وأصحاب الأغراض ، فهي لا تستريح إليه ، ولا تتعامل معه كنظام ، لكن ما الحيلة وقد جاءت الشريعة الإسلامية لتواجه واقعاً عالمياً يتغلغل فيه الرق كنظام ، له أسواقه وله نظامه ؟! لقد تدرجت في أمره بما يساير تطور المجتمع ، فلم تلغه بجرة قلم ، وإنما شلت فاعليته بأن ضيقت مصادره وينابيعه ووِسْعته [٦] .

وكان إلغاؤه يؤدي إلى زلزلة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، بإطلاق سراح الرقيق لا عمل ولا رزق لهم بعد أن كانت نفقاتهم وإيوائهم على أسيادهم . فكانت الحكمة في تضييق روافده بل ردمها كلها ما وجد إلى ذلك سبيل ، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حد ، فيكون ذلك بمثابة إلغاء للرق بطريق التدرج [٧] .

فهي إذا لم تستبح النخاسة –أي تجارة الرقيق – كما لم تجوز الاختطاف ، وهيأت لتحرير الرقيق فرصاً طيبة وألزمت الحاكمين والمحكومين بها ، وما بقي بعد ذلك منه قررت القواعد الإنسانية لمعاملته ، وجعلت التملك عبئاً يجب التخفف منه بالإعتاق [٨] .

---

١ . هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور بن عبد مناة، من مضر، أبو عبد الله: أمير المؤمنين في الحديث. كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد ونشأ في الكوفة، وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم، فأبى. وخرج من الكوفة سنة ١٤٤ هـ فسكن مكة والمدينة. ثم طلبه المهدي، فتوارى. وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفيا سنة ١٦١ هـ . له من الكتب الجامع الكبير و الجامع الصغير ، كلاهما في الحديث ، وكتاب في الفرائض ، وكان آية في الحفظ. ومن كلامه: ما حفظت شيئا فنسيته . انظر صفة الصفوة ٣ / ٩٧ ، الوافي بالوفيات ١٥ / ١٧٤ ، شذرات الذهب ، الأعلام ٣ / ١٠٤ .

٢ . إصلاح المال ، ابن أبي الدنيا ، اسطوانة المكتبة الشاملة .

٣ . سورة الحديد ، آية ٧ . ٤ . سورة النور ، آية ٣٣ .

٥ . انظر المال والحكم في الإسلام ، عبد القادر عودة ، ص ٦٠ .

٦ . واقعية المنهج القرآني ، توفيق محمد سبع ، ص ٣٦٦ .

٧ . انظر الخصائص العامة للإسلام ، د/ القرضاوي ، ص ١٦٦ . ٨ . انظر واقعية المنهج القرآني ، توفيق سبع ، ص ٣٦٦ .

إن هذا التدرج الذي يلائم الواقع ، ويتطلب التأمل فيه ، جاء في شكل حل ذي أربع شعب تدريجية كما اقتضت الحكمة الإلهية [١] :

أ . **الإقرار بالأمر الواقع لممارسة الرق :** ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [٢] ، وإغلاق باب النخاسة إلا رقيق أو أسير الحرب الإسلامية المشروعة ، مع وجود احتمالات للتصرف في هؤلاء الأسرى ، تشمل العفو أو الفداء أو المبادلة مع أسرى المسلمين لدى العدو : ﴿**فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** ﴾ [٣] . فمن بقي منهم في ذمة المسلمين فقد وقع حقه على المجتمع كما جاء في آيات تحض على حسن معاملة الأسير كأحد أفراد المجتمع المسلم : ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً** ﴾ [٤] .

ب . **التشجيع على تحرير الرقيق كأحد الكفارات لبعض الذنوب .**

ففي كفارة القتل الخطأ ، يقول الله تعالى : ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً** ﴾ [٥].

وفي كفارة الظهار ، قال ﷻ : ﴿**وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ [٦] ، وفي كفارة اليمين : ﴿**لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [٧] .

ج . **تمكين الرقيق من مكاتبة سيده ، ويدعم تسديد الثمن من مال الزكاة .**

قال تعالى : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨) ، ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩) .

كما يحق له أن يقاضي سيده الذي يسيء معاملته فيحكم القاضي مباشرة إذا ثبتت التهمة بإطلاق سراح الرقيق .

---

١ . انظر هكذا يحدثنا القرآن في شئون الدين والحياة ، د / محمد ناصر قطبي ، ص ٤٤١ .

٢ . سورة البقرة ، آية ١٧٨ .

٣ . سورة محمد ، آية ٤ .

٤ . سورة الإنسان ، الآيات ٨ – ١٠ .

٥ . سورة النساء ، آية ٩٢ .

٦ . سورة المجادلة ، آية ٣ .

٧ . سورة المائدة ، آية ٨٩ .

٨ . سورة النور ، آية ٣٣ .

٩ . سورة التوبة ، آية ٦٠ .

د . **الأمر بحسن معاملة الرقيق .**

قال تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ (١) .

وفي معاملة الأرقاء والإيماء ، والخدم ، يقول الرسول ﷺ : (... إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم) (٢) .

٥ . **إعداد العدة في الجهاد ، ومواجهة الأعداء .**

هذا الإعداد واجب شرعي ، والأصل فيه قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (٣) ، والهدف منه هو الدفاع عن الإسلام والمسلمين ، ومن أجل انتشار الدين في العالم دعوة وحركة وتربية ونظاماً .

شرح الآية الكريمة :

الإعداد : تهيئة الشيء للمستقبل (٤) . والضمير في ﴿ لَهُمْ ﴾ راجع إلى الأعداء المحاربين . وقوله : ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ قال عنه ابن كثير ، أي : مهما أمكنكم (٥) . وهذا النص القرآني يشير إلى بذل حدود الطاقة إلى أقصاها ، بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها (٦) .

وفي معنى القوة قال الإمام الفخر الرازي رحمه الله : والمراد بالقوة هنا : ما يكون سبباً لحصول القوة وذكروا فيه وجوهاً (٧) :

الأول : المراد من القوة أنواع الأسلحة .

الثاني : روي أنه صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية على المنبر وقال : (ألا إن القوة الرمي ، قالها ثلاثاً) (٨) .

الثالث : قال بعضهم : القوة هي الحصون .

الرابع : قال أصحاب المعاني الأولى أن يقال : هذا عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو ، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة ، وقوله ﷺ : (القوة هي الرمي) لا ينفي كون غير الرمي معتبراً ، كما أن قوله ﷺ: (الحج عرفة) [٩] و (الندم توبة) [١٠] ، و (الدين النصيحة) [١١] ، لا ينفي اعتبار غيره ، بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود فكذا ههنا

---

١ . سورة النساء ، آية ٣٦ .

٢ . أخرجه البخاري ، عن أبي ذر ، كتاب الإيمان ، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ، رقم ٣٠، ١ / ١٠٧ .

٣ . سورة الأنفال ، آية ٦٠ . ٤ . تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، ١٠ / ٥١ .

٥ . تفسير القرآن العظيم،ابن كثير، ٣ / ٣٢٧ . ٦ . انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٥٤٤ .

٧ . انظر مفاتيح الغيب، الرازي ، ٨ /١٤٨ .

٨ . أخرجه مسلم ، عن عقبة بن عامر ، كتاب الجهاد ، باب فضل الرمي والحث عليه، رقم ١٩١٧ ، ٣ / ١٥٢٢ .

٩ . أخرجه الترمذي ، عن عبد الرحمن بن يعمر ، كتاب الصوم ، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج ، رقم ٨٨٩ ، ٣ / ١٥١، وصححه الألباني ١٠ . أخرجه أحمد في مسنده ، عن عبد الله بن مسعود ، رقم ٣٥٦٨ ، ٣ / ٤٨٨ ، وقال المحقق : إسناده صحيح .

١١ . أخرجه مسلم في صحيحه ، عن تميم بن أوس الداري ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم ٥٥ ، ١ / ٧٤ .

ويساعد على هذا المعنى إيراد كلمة (قوة) هنا نكرة لا معرفة ، فهي تشمل كل القوى البدنية والعقلية وأنواع الأسلحة ، ونحو ذلك مما يعين على قتالهم ، فدخل فيها كل سلاح معروف أو سيعرف مع الزمن المتجدد مثل : المدافع والرشاشات والبنادق ، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق ،والطائرات والصواريخ والدبابات ، والقوى النووية والذرية ، ودخل فيها أيضاً الإعداد العقلي والبدني من : الحنكة السياسية ، وتعلم الرمي ، والشجاعة ، والتدبير ، وتقوية الجسم بالرياضات [١] .

ومعنى : ﴿رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ ، قال القاسمي رحمه الله : الرباط في الأصل مصدر ربط ، أي : شد ، ويطلق بمعنى المربوط مطلقاً ، كثر استعماله في الخيل التي تربط في سبيل الله ، فالإضافة إما باعتبار عموم المفهوم الأصلي ، أو بملاحظة كون الرباط مشتركاً بين معان أخر ، كانتظار الصلاة وملازمة ثغر العدو ، والمواظبة على الأمر ، فإضافته لأحد معانيه للبيان [٢] .

وقال الشيخ ابن عاشور رحمه الله : وعطف (رباط الخيل) على (القوة) من عطف الخاص على العام للاهتمام بذلك الخاص ، والرباط صيغة مفاعلة أتي بها هنا للمبالغة لتدل على قصد الكثرة من ربط الخيل للغزو أي احتباسها وربطها انتظاراً للغزو [٣] .

﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ ﴾ أي : تخيفون بإعدادكم ذلك عدوَّ الله ، وعدوكم من المشركين [٤] . وقال الألوسي [٥] رحمه الله : (وعن الراغب [٦] : أن الرهبة والرهب مخافة مع تحرز واضطراب) [٧] .

وهذه العلة في رباط الخيل ، موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء ، والحكم يدور مع علته ، فإذا كان شيء موجود أكثر إرهاباً منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأموراً بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها،حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة، وجب ذلك ؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب [٨] .

١ . انظر تيسير الكريم الرحمن ، السعدي ص ٣٣٤ ، ومنهج القرآن في إصلاح المجتمع ، د/ محمد السيد يوسف ، ص ١٢٨ .
٢ . محاسن التأويل ، القاسمي ، ٥ / ٣١٥ . ٣ . التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، ٦ / ٥٥ .
٤ . جامع البيان في تأويل القرآن ، الطبري ، ١٠ / ٢٩ .
٥ . هو الآلوسي الكبير ، محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، شهاب الدين، أبو الثناء: مفسر، محدث، أديب، من المجددين، من أهل بغداد، مولده ووفاته فيها. ونسبة الأسرة الآلوسية إلى جزيرة (آلوس) في وسط نهر الفرات، على خمس مراحل من بغداد. كان سلفي الاعتقاد، مجتهدا. تقلد الإفتاء ببلده سنة ١٢٤٨ هـ. وعزل، فانقطع للعلم حتى صار إمام عصره بلا منازع ، ثم سافر سنة ١٢٦٢ هـ إلى الموصل، فالأستانة، فغاب ٢١ شهرا وأكرمه السلطان عبد المجيد. وعاد إلى بغداد يدون رحلاته ويكمل ما كان قد بدأ به من مصنفاته، فاستمر إلى أن توفى سنة ١٢٧٠ هـ ، ١٨٥٤ م . من مؤلفاته : روح المعاني في التفسير الذي استغرق تأليفه خمس عشرة سنة جمع فيه خلاصة علم المتقدمين في التفسير ، و نشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول في رحلته إلى الأستانة، و نشوة المدام في العود إلى دار السلام ، وغرائب الاغتراب ضمنه تراجم الذين لقيهم وأبحاثا ومناظرات، و كشف الطرة عن الغرة شرح به درة الغواص للحريري، و مقامات في التصوف والأخلاق عارض بها مقامات الزمخشري، و الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية ، وحاشية على شرح القطر في النحو . انظر الموسوعة العربية الميسرة ١ / ٢٩٢ ، الأعلام ٧ / ١٧٦ .
٦ . هو الراغب الأصفهاني ، الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني أو الأصبهاني المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء. من أهل أصبهان ، سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. من كتبه : محاضرات الأدباء ، و الذريعة إلى مكارم الشريعة ، و الأخلاق ويسمى أخلاق الراغب،وجامع التفاسير أخذ عنه البيضاوي في تفسيره، والمفردات في غريب القرآن، وحل متشابهات القرآن ، تفصيل النشأتين في الحكمة وعلم النفس،وتحقيق البيان في اللغة والحكمة، وكتاب في الاعتقاد،وتوفي سنة ٥٠٢هـ. الوافي بالوفيات٢٩/١٣ ، شذرات، الأعلام ٢ / ٢٥٥
٧ . روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،الآلوسي٢٦/١٠ ،ومفردات الراغب، ص ٢٠٤. ٨. تيسير الكريم الرحمن ،السعدي، ص ٣٣٤ .

ومعنى ﴿ **وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾ قال الطبري رحمه الله : هم كل عدو للمسلمين غير الذين أمر النبي أن يشرد بهم من خلفهم [١] . وذكر الفخر الرازي – رحمه الله – فيه وجوهاً ثم قال : وأصح ما قيل في المقصود منهم : أنهم المنافقون [٢] .

وفي ظلال هذه الآية الكريمة ، يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله : النص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها؛ ويخص (رباط الخيل) ؛ لأنه الأداة التي كانت بارزة عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة . .
ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها في ذلك الحين مما سيجد مع الزمن لخاطبهم بمجهولات محيرة – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – والمهم هو عموم التوجيه .
إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في « الأرض » لتحرير « الإنسان » ، وما تصنعه في حقل الدعوة يتلخص في الأمور الآتية :
الأمر الأول : أن تؤمِّن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها ؛ فلا يصدوا عنها ، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها .
الأمر الثاني : أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على « دار الإسلام » التي تحميها تلك القوة .
الأمر الثالث : أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي ، وهو ينطلق لتحرير الإنسان كله في الأرض كلها .
الأمر الرابع : أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية ، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها ؛ ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ؛ ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه [٣] .

ونحن نؤصّل لفقه الواقع بمفهومه المعاصر ، نلقي الضوء على المضامين التي تحتويها الألفاظ (أعدوا ، قوة ، رباط ، ترهبون) في الآية السابقة [٤] :

أ . **الإعداد** ، ومن أنواعه :

. إعداد النفوس والعقول والأجسام لخوض المعارك مع أعداء الله .

. وإعداد السلاح وجميع أنواع العتاد والمؤن وكل ما يلزم الحرب لخوض معركة يواجه بها العدو أيا كان استعداده .

ـ وإعداد الأفراد المقاتلين إعداداً إسلامياً يشعرهم بأن المعركة جهاد في سبيل الله ، ولابد فيها إحدى الحسنين النصر أو الشهادة .

. وإعداد المال لمواجهة احتياجات الحرب المنظورة وغير المنظورة من قبل خوض المعركة وفي أثنائها وبعد الانتهاء منها .

. وإعداد القادة القادرين على إدارة رحى القتال ، إعداداً شاملاً يوقظ فيهم الرغبة في الحصول على إحدى الحسنين .

. وإعداد الخطة ومراحلها ، وبدائلها إن أصيبت بالفشل في إحدى مراحلها ، حتى لا تؤخذ جنود الله على غرة أو تؤتى من قبل القصور أو التقصير في إعداد الخطة أو الخطط .

---

١ . جامع البيان في تأويل القرآن ، الطبري ، ١٠ / ٣١ . ٢ . انظر مفاتيح الغيب ، الرازي ، ٨ / ١٤٩ .

٣ . انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٣ / ١٥٤٣ . ٤ . انظر التربية الدينية الغائبة ، د / علي عبد الحليم محمود ، ص ٤٣٩ .

ب . **القوة** ، ومن أشكالها :

. تقوية روح المقاتل بوصله بربه عن طريق برنامج مكثف من النوافل والرقائق .

. وتقوية الخلق بالالتزام بالأخلاق الإسلامية في كل موقف .

. وتقوية العقل بالعلم والثقافة والتدرب على التفكير الهادف .

. وتقوية البدن بمده بكل أسباب قوته ، ومنعه من كل أسباب ضعفه .

. وتقوية الرجال القادرين على حمل السلاح جنوداً وقادة .

. وتقوية التسلح بتطوير الآلة العسكرية علمياً وتقنياً .

. وتقوية القدرة على إجراء البحوث العلمية التي تحتاجها المعركة .

. وتقوية الرغبة في الجهاد في نفوس المقاتلين ، وفي نفوس الناس جميعاً .

ج . **المرابطة** ، ومن أصنافها :

. المرابطة العامة للناس جميعاً ، وخصوصاً من يقيمون بالقرب من الأماكن التي يتوقع هجوم العدو منها ، فيكونون على استعداد وحذر .

. والمرابطة للجيش أفراداً وقادة ، بكل ما يملكون من آلة عسكرية متطورة لحماية الإسلام والمسلمين من أي مباغتة ، فرباط الخيل رمز للآلة العسكرية كلها .

. والمرابطة الفكرية والثقافية بل الحضارية عموماً لمواجهة وسائل العدو في الحرب النفسية والثقافية وإفشالها .

ـ والمرابطة بمعنى الالتزام بما أمر الله به وما نهى عنه ؛ لأن أهم عناصر النصر عند المسلمين هو طاعتهم لله ، ومعصية عدوهم لله .

ـ والمرابطة بمعنى طلب المزيد من المعرفة عن العدو ، حتى يواجه المقاتلون عدواً معروفاً مكشوفاً ، فيمكن التخطيط لهزيمته .

ـ والمرابطة بمعنى الثبات على الحق والتواصي به في الجيش وفي المجتمع كله ، والثبات على الصبر وعلى متاعب الحرب والتواصي به .

. والمرابطة بمعنى إعداد العدة لغد وما بعد غد ، أي الحذر والترقب بعد المعركة نصراً أو هزيمة ، فكم من جيش هزم بعد انتصاره ؛ لأنه تراخى بعد تحقيق الانتصار !!

د . **إرهاب العدو :**

وإرهاب العدو هدف أساسي للإعداد باتخاذ وسائل القوة ، والإخلاص في الرباط ، ومن أنواع هذا الإرهاب :

. إحداث توعية مستمرة للجيش وللناس عموماً ، تجعلهم يعيشون في حذر دائم ، وتوقع للمباغتة ليأخذوا حذرهم .

. والعمل على إفشال خطة العدو قبل تنفيذها – إن أمكن – وأثناء تنفيذها بكل تأكيد .

. والتخطيط المضاد للعدو ومباغتته من حيث لا يتوقع .

كل ما قدمناه من إعداد العدة للجهاد ، ومواجهة الأعداء ، يحتاج إلى فقهٍ للواقع الحربي والقتالي ، وحشد كل الطاقات والإمكانات العلمية ، والفكرية، والروحية ، والجسمية ، والمادية ، ومن هذا الجانب نرى اتصال الواقع وفقهه بموضوع المقاومة والممانعة ضد الأعداء ، بحيث يصير فقه الواقع بأنواعه – الدعوي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والعلمي وواقع الأعداء – ضرورة لازمة لا مناص منها لكسب المواجهة وتحقيق النصر .

الفصل الثاني
مكونات الواقع في القرآن الكريم

وفيه أربعة مباحث :
المبحث الأول : عناصر تشكيل الواقع .
المبحث الثاني : خصائص الواقع .